

٨

الحمد

للخواجه نصير الدين الطوسي رحمه الله تعالى
في مدح هذا الكتاب المستطاب

بنفسي كتاب حاز كل فضيلة ... وصار لتكميل البرية ضامنا
مؤلفه قد ابرز الحق خالصا ... بتأليفه من بعد ما كان كامنا
ووسمه باسم الطهارة قاضيا ... بحق معناه ولم يك مائنا
لقد بذل المجهود لله دره ... فما كان في نصح الخلائق خائنا

طهارة النفس

217

٥

هذا از خرفی ملکی
والله مالك
السموات
والارض



٤١٠٨
ت
٦٦

ويستعين

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم انا نتوجه اليك ونسعى نحوك ونجاهد
اليك في طاعتك ونركب الصراط المستقيم الذي
نهجته لنا الى مرضاتك فاعنا بقوتك واهدنا
بعزتك واعصمنا بقدرتك وبلغنا الدرجة العليا
برحمتك [و] رافتك انك على [ما] تشاء قدير
قال [ابو علي] احمد بن محمد [بن يعقوب] مسكويه غرضنا في هذا الكتاب
ان نحصل لانفسنا خلقا تصدر به عنا الافعال
كلها جميلة ويكون مع ذلك سهلة علينا لا كلفة فيها
ولا مشقة ويكون بصناعة وعلى ترتيب تعليمي والطريق
الى ذلك [ان] نعرف [نفوسنا] ما هي واي شيء هي ولاي شيء
اوجدت فينا اعني كمالها وغايتها وما قواها
وملكاتها اذا استعملناها على ما ينبغي بلغنا بها
هذه الرتبة العلية وما الاشياء العايقة [لنا] عنها وما الذي

لانفسنا

ندسها

يزكيها فتفلح وما الذي يدسيها فيخيبها [فتخيب] فان الله عز
من قايل يقول ونفس وما سويها فالهمها فجورها
وتقويها قد افلح من زكيها وقد خاب من دسيها
ولما كان لكل صناعة مبادي عليها تبتني وبها تحصل
وكانت تلك المبادي ماخوذة من صناعة اخرى وليس
في منة شيء من الصناعات ان تبين مبادي انفسها
كان لنا عذر واضح في ذكر مبادي هذه الصناعة على
طريق الاجمال والاشارة بالقول الوجيز وان لم يكن ما قصدنا له
واتباعها بعد ذلك بما نوخيناه من اصابة الخلق الشريف
الذي يشرف به شرفا ذاتيا حقيقيا لا على طريق العرض الذي
لا ثبات له ولا حقيقة اعني المكتسب بالمال والكاثرة
او السلطان والمغالبة والاصطلاح والمواضعة فنقول
وبالله التوفيق قولا نبتني عليه ان فينا شيئا ليس
بجسم ولا بجزء من جسم ولا عرض ولا يحتاج في وجوده
الى قوة جسمية بل هو جوهر بسيط غير محسوس بشيء من الحواس

صناعة

فنين مدرسة

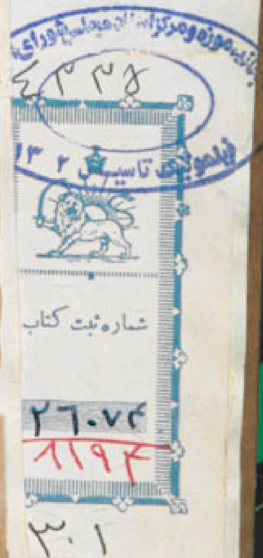
بل هو جوهر

ثم نبين ما مقصودنا منه الذي خلقنا له وندبنا اليه
فنقول انا لما وجدنا في الانسان شيئاً يضاد الاجسام
واجزاء الاجسام بحدوده وخواصه وله ايضاً افعال تضاد
افعال الجسم وخواصه حتى لا يشاركه في حال من الاحوال
وكذلك نجده يباين الاعراض ويضادها كل الغاية
المباينة ثم وجدنا هذه المضادة والمباينة منه للاجسام
والاعراض انما هي من حيث كانت الاجسام اجساماً
والاعراض اعراضاً حكمنا بان هذا الشيء ليس جسماً ولا جزءاً
من جسم ولا عرضاً وذلك انه لا يستحيل ولا يتغير وايضاً
فانه يدرك جميع الاشياء بالسوية ولا يلحقه فتور
ولا كلال ولا نقص وبيان ذلك ان كل جسم له صورة ما فانه
ليس يقبل صورة اخرى من جنس صورته الاولى الا بعد
مفارقته الصورة الاولى مفارقة تامة مثال ذلك
ان الجسم اذا قبل صورة او شكلاً ما من الاشكال كالتثليث مثلاً فليس يقبل شكلاً آخر من التربيع والتدوير
وغيرهما الا بعد ان يفارقه الشكل الاول وكذلك اذا قبل
صورة

انما هي صح

شكلاً ما من الاشكال كالتثليث مثلاً فليس يقبل صح

صورة نقش او كتابة او اي شيء كان من الصور فليس
تقبل صورة اخرى من ذلك الجنس الا بعد زوال الاولى
وبطلانها البتة فان بقي شيء من اسم الصورة الاولى
لم يقبل الصورة الثانية على التمام ومثال ذلك انه اذا قبل
الشمع صورة نقش في الخاتم لم يقبل عنده من النقوش
الا بعد ان يزول عنه رسم النقش الاول وكذلك الفضة
اذا قبلت صورة الخاتم وهذا حكم مستمر في الاجسام كلها
ونحن نجد انفسنا تقبل صور الاشيا على اختلافها من
المحسوسات والمعقولات على التمام والكمال من غير مفارقة
للاول ولا معاقبة ولا زوال وهم بل يبقى الرسم الاول
تاماً كاملاً ولا يزال تقبل صورةً بعد صورة ابداً دايماً
من غير ان تضعف او تقصر في وقت من الاوقات عن قبول
ما يرد ويطرأ عليها من الصور بل يزداد بالصورة
الاولى قوة على ما يرد عليها من الصور الاخرى
وهذه الخاصية مضادة لخواص الاجسام ولهذه العلة



يزداد الانسان فيهما كلما ارتاض ويخرج العلوم والاداب
فليست النفوس اذا اجساماً فاما انها ليست بعرض فهو يبين
من قبل ان العرض لا يحمل عرضاً لان العرض في نفسه محمول
ابداً اي موجود في غيره لا قوام له بذاته وهذا الجوهر
الذي وصفنا حاله هو ابداً قابل وحامل بالتمر واكمل
من حمل الجسم للاعراض فاذا النفس ليست جسماً ولا جزءاً
من جسم ولا عرضاً وايضاً فان الطول والعرض والعمق
الذي صار به الجسم جسماً يحصل في النفس وفي قوتها الوهمية
من غير ان تصير به طويلاً عريضاً عميقاً ثم يزداد فيه هذه
المعاني ابداً بلا نهاية فلا تصير به اطول واعرض واعمق
بل لا يصير به جسماً البتة ولا اذا تصورت الالوان
والطعوم والروايح لم يتصور بها كما يتصور بها الاجسام
ولا يمنع بعضها قبول بعض من اضدادها كما يمنع الجسم
بل يقبلها كلها في حال واحدة بالسواء وكذلك كذلك
حالها في المعقولات فانها تزداد بكل معقول تحصله قوة

على قبول

على قبول غيره دايماً ابداً بلا نهاية وهذه حال مقابله
لاحوال الاجسام وخاصة في غاية البعد من خواصها
وايضاً فان الجسم وقول لا يعرف العلوم الا من الحواس
ولا يميل الا الا اليها فهو يتشوقها بالملابسة والمشاكلة
كالشهوات البدنية ومحبة الاشيا والغلبة وبالجملة
كل ما يحس ويوصل اليه بالحس وهو يزداد بهذه الاشياء
قوة وتستفيد منها تماماً وكمالاً لانها مادته واسباب
وجوده فهو يفرح بها وتشتاق اليها من اجل انها تتمم
وجوده فتزيد فيه وتمده فاما هذا المعنى الاخر
الذي سميناه نفساً فانه كلما تباعد من هذه المعاني
البدنية التي احصيناها وتداخل الى ذاته وتخلى
من الحواس باكثر ما يمكن ازداد قوة وتماماً وكمالاً
وتظهر الاراء الصحيحة والمعقولات البسيطة وهذا
ادل دليل على ان طباعه وجوهره من غير طباع الجسم والبدن
وانه اكرم جوهراً وافضل طباعاً من كل ما في هذا العالم

من الامور الجسمانية وايضا فانه يتشوق الى ما ليس
من طباع البدن وحرصه على معرفة حقايق الامور
الالهية وميله الى الامور التي هي افضل من الامور الجسمية
وايثاره له وانصرافه اللذات الجسمية لتحصيل اللذات عن ح
العقلية يدلنا دلالة واضحة انه من جوهر اعلى
واكرم جدا من الامور الجسمانية لانه لا يمكن في شي من
الاشيا ان يتشوق الى ما ليس من طبيعته ولا ان يتصرف
عما يكمل ذاته ويقوم جوهره فاذا كانت افعال النفس
اذا انصرفت الى ذاتها وتركت الحواس مخالفة لافعال البدن
ومضادة لها في محاولاتها وارادتها فلا محالة ان جوهرها
مفارق بجواهر البدن ومخالف له في طبعه وايضا
فان النفس وان كانت تاخذ كثيرا من مبادي العلوم
عن الحواس فلها من نفسها مبادئ اخر وافعال لا تاخذها
عن الحواس البتة وهي المبادي الشريفة العالية التي تبنى
عليها القياسات الصحيحة وذلك انها اذا حكمت انه

ليس بين

ليس بين طرفي النقيض واسطة فانها لم تاخذ هذا
الحكم من شئ آخر لانه ولو اخذته من شئ آخر
لم يكن اول وايضا فان الحواس تدرك المحسوسات
فقط واما النفس فانها تدرك اسباب الاتفاقات
واسباب الاختلافات التي بين المحسوسات وهي
معقولاتها التي لا تستعين عليها بشئ من الجسم
ولا آثار الجسم وكذلك اذا حكمت على الحس انه صدق
او كذب فليس ياخذ هذا الحكم من الحس لان الحس
لا يضاد نفسه فيما يحكم به ونحن نجد النفس العاقلة
فينا تستدل شيا كثيرا من خطاء الحواس في مبادي
افعالها وترد عليها احكامها من ذلك ان البصر يخطي
فيما يراه من قرب وبعد اما خطاوه في البعيد
فبادراك الشمس صغيرة مقدارها عرض قدم وهي مثل
الارض كلها مائة ونيفا وستين مرة يشهد بذلك
البرهان فيقبل منه ويرد على الحس ما شهد به فلا يقبله العقل ح

فبمنزلة

واما خطاؤه في القريب فيمن له ضوء الشمس اذا وقع
علينا من ثقب صغار مربعات كخلل البواري واشباهها
التي فستظل بها فانه يدرك الضوء الواصل الينا منها
مستديرا فترد النفس العاقلة عليه هذا الحكم وتغلطه
في ادراكه وتعلم انه ليس كما يراه ويخطي البصر ايضا
في حركة القمر والسحاب والسفينة والشاطئ ويخطي
في الاساطين المسطرة والنخيل واشباههما حتى يراها
مختلفة في اوضاعها وايضا يخطي في الاشياء التي
تتحرك على الاستدارة حتى يراها كالحلقة وكالطوق
ويخطي ايضا في الاشياء الغايصة في الماء حتى يرى
بعضها اكبر من مقداره ويرى بعضها مكسورا
وهو صحيح وبعضها معوجا وهو مستقيم وبعضها
منكوسا وهو منتصب فيستخرج العقل هذه كلها من
مبادي عقلية ويحكم عليها احكاما صحيحة
وكذلك الحال في حاسة السمع وحاسة الشم وحاسة الذوق

وحاسة

وحاسة اللمس اعني ان حس الذوق يغلط في الحلو
فيجده مرا وحاسة السمع تغلط في المواضع الصقيلة
المستديرة واشباهها عند الصداء وما اشبهه
وحاسة الشم يغلط كثيرا في الاشياء المنتنة لا سيما
في المنتقل من رايحة الى رايحة فالعقل يرد هذه القضايا
ويقف فيها ثم يستخرج اسبابها ويحكم فيها احكاما
صحيحة والحاكم في الشيء المزيف والمصحح افضل
واعلى رتبة من المحكوم عليه وبالجملة فان النفس
اذا علمت ان الحس قد كذب او صدق فليس باخذ هذا
العلم من الحس ثم اذا علمت انها قد ادركت معقولاتها
فليست تعلم هذا العلم من علم آخر لاحتاجت في ذلك
العلم ايضا الى علم آخر وهذا ثم بلا نهاية فاذا علمها
بانها علمت ليس بماخوذ من علم آخر البتة بل هو من
ذواتها وجوهرها اعني العقل وليست يحتاج في ادراك
ذاتها الى شيء آخر غير ذاتها ولهذا قيل في اواخر هذا

بالجملة

علم آخر فانها لو علمت من علم صح

العلم ان العاقل والعقل والمعقول شي احد لا غيره
فيه وهذا يبين في موضعه فاما الحواس لا تحس
ذواتها ولا ما هو موافق لها كل الموافقة كما سنبين
ايضا فاذ قد تبين من هذه الاشياء بيانا واضحا
ان النفس ليست بجسم ولا جزء من جسم ولا حال
للجسم وانها شي آخر مفارق للجسم بجوهره واحكامه
وخواصه وافعاله فنقول اما شوقها الى افعالها
الخاصة بها اعني العلوم والمعارف مع هربها من افعال
الجسم الخاصة به فهو فضيلتها وبحسب طلب الانسان لهذه
الفضيلة وحرصه عليها يكون فضيلة وهذا الفضل
تزيد بحسب عناية الانسان بنفسه وانصرافه عن الامور
العايقة له عن هذا المعنى بجهده وطاقته وقد وضح
مما تقدم ما الاشيا العايقة لنا عن الفضايل اعني الاشياء
البدنية والحواس وما يتصل بها فاما الفضايل
انفسها فليست تحصل لنا الا بعد ان نطهر نفوسنا من الرذايل

التي

التي هي اضدادها اعني شهواتها الردية الجسمانية
ونزواتها الفاحشة البهيمية فان الانسان اذا علم
ان هذه الاشيا ليست فضايل لم يرتكبها بل يجتنبها
وكره ان يوصف بها واذا ظن انها فضايل لزامها
وصارت له عادة وبحسب التباسه وتدنسه بها
يكون بعده من قبول الفضايل وقد يظهر للانسان ان هذه
الاشياء التي نشتاقها البدن بالحس ويميل اليها الجمهور
اعني المآكل والمشارب والمناكح رذايل وليست فضايل
وانا ذا يتفقدها في الحيوانات الآخر وجد كثيرا منها
اقدر على الاستكثار واحرص عليها كالخنزير والكلب
واصناف كثيرة من حيوان الماء وسباع الوحش والطير
فانها اقوى من الانسان على هذه الاشيا واكثر احتمالا
لها وليست يكون بها افضل من الانسان وايضا
فان الانسان اذا اكتفى من طعامه وشرابه وساير لذاته
البدنية اذا عرض عليه الاستزادة منها كما تستزاد

من الفضايل ابى ذلك وعاقه ويبين له قبح صورة
من يتعاطاها لا سيما مع الاستغنا عنها والاكتفاء منها
بل يتجاوز ذلك الى مقته وذمه بل الى تقويمه وتاديبه
فينبغي الان ان نقدم امام ما يطلبه من سعادة
النفس وفضايلها كلاما يسهل به فهم ما نريده فنقول
كل موجود من حيوان ونبات وجماد ولذلك بسايطها
اعني النار والهوى والماء والارض وكذلك الاجرام العلوية
لها قوى وملكات وافعال بها يصير ذلك الموجود
هو ما هو وبها يتميز عن كل ما سواه وله ايضا قوى
وملكات وافعال بها يشارك ما سواه ولما كان الانسان
من بين الموجودات كلها هو الذي يلتمس له الخُلُق
المحمود والافعال المرضية وجب الا ينظر في هذا الوقت
في قوته وملكاته وافعاله التي يشارك بها ساير
الموجودات اذ كان ذلك من حق صناعة اخرى وعلم
اخر يسمى العلم الطبيعي فاما افعاله وقواه وملكاته

التي

التي يختص بها من حيث هو انسان وبها يتم انسانيته
وفضايله فهي الامور الارادية التي يتعلق بها قوة
الفكر والتميز والنظر فيها يسمى الفلسفة العملية والاشياء
الارادية التي ينسب الى الانسان ينقسم الى الخيرات
والشرور وذلك ان الغرض المقصود بوجود الانسان
اذا توجه الواحد منا اليه حتى يحصل له هو الذي يجب
ان يسمى به خيرا وسعيدا وخيرا وسعادة فاما من عاقه
عوايق اخر عنها فهو الشرير الشقي فاذا الخيرات هي الامور
التي تحصل للانسان بارادته وسعيه من الامور التي
وجد لها الانسان ومن اجلها خلق والشرور هي الامور
العايقة عن هذه الخيرات بارادته وسعيه او كسله
وانصرافه والخيرات قد قسمها الاولون الى اقسام
كثيرة وذلك ان منها ما هي شريفة ومنها ما هي ممدوحة
ومنها ما هي نافعة ومنها ما هي بالقوة كذلك واعني بالقوة
التهيؤ والاستعداد ومن الخيرات اقسام اخر نحن

نعدّدها فيما بعد ان شاء الله تعالى وقد قدمنا القول
ان كل واحد من الموجودات له كمال خاص به وفعل لا يشاركه
فيه غيره من حيث هو ذلك الشي اعني انه لا يجوز ان يكون
موجودا آخر اصلح لذلك الفعل منه وهذا حكم مستمر في الامور
العلوية والامور السفلية كالشمس وساير الكواكب وكانواع
الحيوانات كلها كالفرس والبازي وكالنبات والمعادن
وكالعناصر البسايط التي متى تصفحت احوالها تبين لك
من جميعها صحة ما قلناه وحكمنا به فاذاً الانسان
من بين الموجودات له فعل خاص به لا يشاركه فيه غيره
وهو ما صدر عن قوته المميزة المروية فكل من كان
تمييزه اصح ورويته اصدق واختياره افضل
كان اكمل في انسانيته وكما ان السيف والمنشار ان
صدر عن كل واحد منهما فعله الخاص بصورته الذي
من اجله عمل فافضل السيوف ما كان امضى وانفذ وما
كفاه اليسير من الايماء في بلوغ كماله الذي اعدّ له وكذلك

الحال

الحال في الفرس والبازي وساير الحيوانات الاخر
فان افضل الافراس ما كان اسرع حركة واشد تيقظا
لما يريده الفارس منه في طاعة اللجام وحسن القبول في الحركات
وخفة العدو والنشاط فكذلك الانسان افضلهم
من كان اقدر في افعاله الخاصة به واشدهم تمسكا بشرائط
جوهره الذي يتميز به من الموجودات فاذا بالواجب
الذي لا مرية فيه ينبغي ان يحرص على الخيرات التي
هي كمالنا والتي من اجلها خلقنا ويجتهد في الوصول
الى الانتهاء اليها ويتجنب الشرور التي تعوقنا عنها
وينقص حظنا منها فان الفرس اذا قصر عن كماله ولم تظهر
افعاله الخاصة به على افضل احوالها حط عن مرتبة الفرسية
واستعمل بالاكاف كما يستعمل الحمير وكذلك حال السيف وساير
الآلات متى قصرت ونقصت حطت عن مراتبها واستعملت
استعمال ما دونها فالانسان اذا نقصت افعاله وقصرت
عما خلق له اعني ان تكون رويته وافعاله التي تصدر عنه

وعن روية غير كاملة اخرى ان يحط عن مرتبة الانسانية
الى مرتبة البهيمية هذا اذا صدرت افعاله الانسانية
عنه ناقصة غير تامة فاما اذا صدرت عنه الافعال
بضدها اعدائه اعنى الشرور التى يكون بالروية الناقصة
والعدول بها عن جهتها لاجل الشهوة التى مشاركة فيها
البهيمة والاغترار بالامور الحسية التى يشغله عما عرض
له من تزكية نفسه التى ينتهى به الى الملك الرفيع والسرور
الحقيق وتوصله الى قرة العين التى قال الله تعالى فلا تعلم
نفس ما اخفى لهم من قرة اعين وتبلغه جوار رب العالمين
فى النعيم المقيم واللذات التى لم ترها عين ولا سمعتها
اذن ولا خطر على قلب بشر وانخدع عن هذه الموهبة السرمدية
الشريفة بتلك الخساسات التى لا ثبات لها فهو حقيق بالمقت
من خالقه عز وجل خليق بتعجيل العقوبة له واراحة العباد
والبلاد منه واذ قد تبين ان سعادة كل موجود انما هي
فى صدور افعاله التى تخص صورته عنه تامة كاملة وان

سعادة

سعادة الانسان تكون فى صدور افعاله الانسانية
عنه بحسب تمييزه ورويته وان لهذه السعادة مراتب
كثيرة بحسب الروية والمروى فيه ولذلك قيل افضل
الروية ما كان فى افضل مروى فيه ثم تزداد رتبة فرتبة
الى ان ينتهى الى النظر فى الامور الممكنة من العالم الحسى
فيكون الناظر فى هذه الاشيا قد استعمل رويته والصورة
الخاصة التى صار من اجلها سعيدا معرضا للملك الابدي
والنعيم السرمدي فى اشيا دنية لا وجود لها بالحقيقة
وقد تبين اذا اجناس السعادات بالجملة واضدادها
من الشقاوات واجناسها وان الخيرات والشرور فى
الافعال الارادية اما باختيار الافضل والعمل به واما باختيار
الادون والميل اليه ولما كانت هذه الخيرات الانسانية كثيرة
ولم يكن فى طاقة الواحد القيام بها بجميعها وجب ان تقوم
بجميعها جماعة كثيرة منهم ولذلك وجب ان يكون
اشخاص الناس كثيرة وان يجتمعوا فى زمان واحد على

تحصيل هذه السعادات المشتركة ليكمل كل واحد
منهم بمعاونة الباقين له فيكون الخيرات مشتركة والسعادة
فرضى بينهم فيتوزعونها حتى يقوم كل واحد بجزء منها
ويتم للجميع بمعاونة الجميع الكمال الانسى وتحصل لهم
السعادات الثلث التى شرحناها فى كتاب الترتيب
ولاجل ذلك كان يكون الناس يحب بعضهم بعضا لان كل
واحد يرى كمال نفسه عند الاخر ولولا ذلك لما تمت بهذا
سعادة فيكون ابدا كل واحد بمنزلة عضو من اعضاء
البدن وقوام الانسان بتمام اعضاء بدنه وقد تبين
للناظر فى امر هذه النفس وقواها انها ينقسم الى ثلثة
اقسام اعنى القوة التى بها يكون الفكر والتميز والنظر فى
حقايق الامور والقوة التى بها يكون الغضب والنجدة
والاقدام على الاهوال والشوق الى التسلط والترفع وضروب
الكلالات والقوة التى بها يكون الشهوة وطلب الغذاء
والشوق الى الملاذ فى الماكل والمشارب والمناكح وضروب

اللذات

اللذات الحسية وهذه الثلث متباينة ويعلم ذلك
من ان بعضها اذا قوى اضر بالاخر وربما ابطل احدها
فعل الاخر وهذه ربما جعلت نفوسا وربما جعلت قوى
لنفس واحدة والنظر فى ذلك ليس يليق بهذا الموضع
وانت تكتفى فى تعلم الاخلاق بانها ثلث قوى متباينة
يقوى احدها ويضعف بحسب المزاج او العادة او التاديب
فالقوة الناطقة هى التى تسمى الملكية والتها التى تستعملها
من البدن الدماغ والقوة الشهوية هى التى تسمى البهيمية
والتها التى تستعملها من البدن الكبد والقوة الغضبية
هى التى تسمى السبعية والتها التى تستعملها من البدن القلب
فلذلك وجب ان يكون عدد الفضايل بحسب اعداد هذه
القوى وكذلك اضدادها التى هى رذايل فمتى كانت حركة
النفس الناطقة معتدلة غير خارجة عن ذاتها وكان
شوقها الى المعارف الصحيحة لا المظنونة معارف وهى بالحقيقة
جهالات حدثت عنها فضيلة العلم ويتبعها الحكمة

ومتى كانت حركة النفس البهيمية معتدلة منقادة
للنفس العاقلة غير متأبية عليها فيما يقسطه لها ولا منهمكة
في اتباع هواها حدثت عنها فضيلة العفة ويتبعها
فضيلة السخا ومتى كانت حركة النفس الغضبية معتدلة
يطيع النفس العاقلة فيما تقسطه لها فلا تهيج في غير حينها
ولا تحمى اكثر مما ينبغي لها حدثت عنها فضيلة الحلم ويتبعها
فضيلة الشجاعة ثم يحدث من هذه الفضايل الثلث
باعتدالها ونسبة بعضها الى بعض فضيلة هي كمالها وتمامها
وهي فضيلة العدالة فلذلك اجمع الحكما ان اجناس
الفضايل اربعة وهي الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة
ولذلك لا يفتخر احد ولا يباهي الا بهذه الفضايل فاما
من افتخر باباية واسلافه فلانهم كانوا على بعض
هذه الفضايل او عليها كلها وكل واحدة من هذه الفضايل
اذا تعدت صاحبها الى غيره سمي صاحبها بها ومدح
عليها واذا اقتصر بها على نفسه ولم يسم بها بل غيرت هذه

الاسما

الاسما اما الجود فانه اذا لم يتعد صاحبه منفاقا
واما الشجاعة فان صاحبها انفا غيورا واما العلم
فان صاحبه مستبصرا ثم ان صاحب الجود والشجاعة
اذا عم غيره بفضيلته وتعدتاه يرجى باحدهما
واحتشم وهيب بالاخر وذلك في الدنيا فقط لانهما
فضيلتان حيوانيتان فاما العلم اذا تعدى صاحبه
فانه يرجى ويحتشم في الدنيا والاخرة لانه فضيلة
انسانية ملكية واضداد هذه الفضايل الاربع من
الرذايل ايضا اربع وهي الجهل والشره والجبن والجور وتحت
كل واحد من هذه الاجناس انواع كثيرة سنذكر منها ما يمكن
ذكره فاما اشخاص الانواع فهي بلا نهاية وهي امراض
نفسانية يحدث عنها الام كثيرة كالخوف والحزن والغضب
وانواع العشق والشهوات وضروب الخلق من سوء الخلق
وسنذكرها ونذكر علاجاتها فيما بعد ان شاء الله تعالى
والذي يجب علينا الان تحديد هذه الاشيا اعني الاجناس

الاربعة التي تحتوي على جمل الفضايل فنقول اما الحكمة
فهي فضيلة النفس الناطقة المميزة وهي ان تعلم كلها من
حيث هي موجودة وان شيت فقل ان تعلم الامور الالهية
والامور الانسانية ويثمر علمها بذلك ان تعلم المعقولات
ايها يجب ان يفعل وايها لا يجب ان يفعل واما العفة
فهي فضيلة الجزء الشهواني وظهور هذه الفضيلة في الانسان
يكون بان يصرف شهواته بحسب الراي اعني ان يوافق
التميز الصحيح حتى لا ينقاد لها ويصير بذلك حرا غير متعبد
بشيء من شهواته واما الشجاعة فهي فضيلة النفس
الغضبية وتظهر في الانسان بحسن انقيادها للنفس الناطقة
المميزة واستعمال ما يوجبه الراي المحمود في الامور الهائلة
اعني الا يخاف من الامور المفزعة اذا كان فعلها جميلاً
والصبر عليها محمودا فاما العدالة فهي فضيلة للنفس تحدث
لها من اجتماع هذه الفضايل الثلث التي عددناها وذلك
عند مسالمة هذه القوى بعضها لبعض واستسلامها
للقوة

للقوة المميزة حتى لا تتغالب ولا يتحرك نحو مطلوباتها
على سوم طباعها ويحدث للانسان بها هيئة يختار بها
ابدا الانصاف من نفسه على نفسه اولا ثم الانصاف والانتصاف
من غيره وسنتكلم على واحدة من الفضايل بكلام اوسع
من هذا اذا ذكرنا الفضايل التي تحت كل جنس من هذه
الاربع اذ كان غرضنا في هذا الوضع الاشارة اليها
بالرسوم الوجيزة ليتصورها المتعلم والذي ينبغي ان يتبع
ما قدمناه ذكر انواع هذه الاجناس وما تحت كل واحد
منها فنقول اما الاقسام التي تحت الحكمة فهي هذه
الحفظ حسن التصور
الذكر التعقل سرعة الفهم وقوته صفاء الذهن
سهولة التعلم وبهذه الاشيا يكون حسن الاستعداد
للحكمة فاما الوقوف على جواهر هذه الاقسام فيكون
من حدودها وذلك ان العلم بالحدود به يفهم من جواهر
الاشيا المطلوبة الموجودة دايما على حال واحدة وهو العلم
البرهاني الذي لا يتغير ولا يدخله الشك بوجه من الوجوه

والفضايل التي هي بذاتها فضايل ليس يكون في حال من الاحوال
غير فضايل وكذلك العلوم بها اما الذكا فهو سرعة انقداح
النتايج وسهولتها على النفس واما الذكر فهو ثبات صورة
ما يخلصه العقل او الوهم من الامور واما التعقل فهو
موافقة بحث النفس عن الاشياء الموضوعة بقدر ما هي
عليه واما صفاء الذهن فهو استعداد النفس لاستخراج
المطلوب واما جودة الذهن وقوته فهو تامل النفس
لما لزم من المقدم واما سهولة التعلم فهي قوة للعقل
وحدة في الفهم بها تدرك الامور النظرية - الفضايل
التي تحت العفة الحيا الدعة الصبر السخا الحرية
القناعة الدماثة الانتظام حسن السمت الهدى المسالمة
الوقار الورع اما الحيا فهو انحصار النفس خوف اتيان
القبيح والحذر من الذم والسب الصادق واما
الدعة فهو سكون النفس عند حركة الشهوات
واما الصبر فهو مقاومة النفس الهوى لئلا ينقاد

لقبايح

لقبايح اللذات واما السخا فهو التوسط في الاعطا
والاخذ وهو ان ينفق الاموال فيما ينبغي بمقدار ما ينبغي
وعلى من ينبغي
وتحت السخا خاصة انواع كثيرة ونحن نحصيها لكثرة
الحاجة اليها واما الحرية فهي فضيلة النفس بها
يكسب المال من وجهه ويمتنع من اكتساب المال من
ويعطي ما يجب في وجهه صح
غير وجهه واما القناعة فهي التساهل في الماكل والمشارب
والزينة واما الدماثة فهي حسن انقياد النفس
لما يحمد وتسرعها الى الجميل واما الانتظام فهو حال
للنفس يقودها الى حسن تقدير الامور وترتيبها
كما ينبغي واما الهدى فهو محبة النفس تكميلها
بالزينة الحسنة واما المسالمة فهي موادعة تحصل
للنفس عن ملكة لا اضطراب فيها واما الوقار فهو
سكون النفس وثباتها عند الحركات التي تكون في المطالب
واما الورع فهو لزوم الاعمال الجميلة التي فيها كمال
النفس - الفضايل التي تحت الشجاعة كبر النفس النجدة

عظم الهمة - الصبر الثبات الحلم عدم الطيش الشهامة
احتمال الكد اما كبر النفس فهو الاستهانة باليسار
والاقتدار على حمل الكرامة والهوان فصاحبه ابدا
يوهل نفسه للامور العظام مع استحقاقه لها واما
النجدة فهي ثقة النفس عند المخاوف حتى لا يخامرها
جزع واما عظم الهمة فهو فضيلة للنفس تحتمل سعادة
الجد وضدها حتى الشدايد التي يكون عند الموت
واما الثبات فهو فضيلة للنفس تقوى بها على احتمال
الالام ومقاومتها وفي الاهوال خاصة واما الحلم
فهو فضيلة للنفس يكسبها الطمانينة فلا يكون شغبة
ولا يحركها الغضب بسهولة وسرعة واما السكون الذي
نعني به عدم الطيش فهو اما عند الخصومات واما
في الحروب التي يذب بها عن الحرم او عن الشريعة
وهي قوة للنفس تعسر حركتها في الاحوال لشدتها واما
الشهامة فهي الحرص على الاعمال العظام توقعا للاحدوثة

الجميلة

الجميلة واما احتمال الكد فهو قوة للنفس يستعمل الالة
البدن في الامور الحسنة بالتمرين وحسن العادة
الفضايل التي تحت السخا الكرم الايثار النبل
المواساة السماحة المسامحة - اما الكرم فهو انفاق
المال الكثير بسهولة من النفس في الامور الجليلة القدر
الكثيرة النفع كما ينبغي وباقي شرايط التي ذكرناها واما
الايثار فهو فضيلة للنفس بها يكف الانسان عن بعض
حاجاته التي تخصه حتى يبذله لمن يستحقه واما
النبل فهو سرور النفس بالافعال العظام وابتهاجها
بلزوم هذه السيرة واما المواساة فهي معاونة الاصدقاء
والمستحقين ومشاركته في الاموال والاقوات
واما السماحة فهي بذل ما لا يجب واما المسامحة بعض
فهي بذل بعض ما يجب والجميع بالارادة والاختيار
الفضايل التي تحت العدالة الصداقة الالفة صلة
الرحم المكافاة حسن الشركة حسن القضا التودد

العبادة اما الصداقة فهي محبة صادقة يهتم معها
بجميع اسباب الصديق وايثار فعل الخيرات التي يمكن
فعلها به واما الالفة فهي اتفاق الآراء والاعتقادات
على التضام في تدبير العيش واما صلة الرحم فهي مشاركة
ذوي اللحمة في الخيرات التي تكون في الدنيا واما المكافاة
فهي مقابلة الاحسان بمثله او زيادة عليه واما حسن
الشركة فهو الاخذ والعطاء في المعاملات على الاعتدال
الموافق للجميع واما حسن القضاء فهي مجازاة بغير ندم
ولا منّ واما التودد فهو طلب مودات الاكفا
واهل الفضل بحسن اللقاء وبالاعمال التي يستدعي
ذلك منهم واما العبادة فهي تعظيم الله عز وجل
وتمجيده وطاعته واكرام اوليائه من الملائكة والانبيا
والائمة والعمل بما توجبه الشريعة وتقوى الله عز وجل
يكمل هذه الاشيا ويتممها واذ قد اقتصصنا الفضايل
الاولى واقسامها وذكرنا انواعها واجزاها فقد عرفت
الرذايل

الرذايل التي تضاد الفضايل لانه يفهم من كل واحدة
من تلك الفضايل ما يقابلها لان العلم بالاضداد واحد
ولما كانت هذه الفضايل هي اوساط بين اطراف
وتلك الاطراف هي الرذايل وجب ان يفهم منها وان
اتسع لنا الزمان ذكرناها لان وجود اسمايها في هذا
الوقت متعذر وينبغي ان يفهم من قولنا ان كل فضيلة
فهي وسط بين رذايل ما انا واصفه ان الارض لما كانت
على غاية البعد من السماء قيل انها وسط وبالجملة المركز
من الدايرة فهو على غاية البعد من المحيط واذا كان الشي
على غاية البعد من شي آخر فهو من هذه الجهة على القطر
فعلى الوجه ينبغي ان يفهم معنى الوسط من الفضيلة
اذ كانت بين رذايل بعدها منها اقصى البعد ولهذا
اذا انحرفت الفضيلة عن موضعها الخاص بها ادنى
انحراف قربت من رذيلة اخرى ولم تسلم من العيب بحسب
قربها من تلك الرذيلة التي تميل اليها ولهذا اصعب جدا

وجود هذا الوسط والتمسك به بعد وجوده اصعب
ولذلك قال الحكما اصابة نقطة الهدف اعسر من العدول
عنها ولزوم الصواب بعد ذلك حتى يخطيها اعسر
واصعب وذلك ان الاطراف التي تسمى رذايل من الافعال
والاحوال والزمان وساير الجهات كثيرة جدا ولذلك
دواعي الشر اكثر من دواعي الخير ويجب ان تطلب
اوساط تلك الاطراف بحسب انسان انسان فاما ما يجب
علينا نحن فهو ان نذكر جمل هذه الاوساط وقوانينها
بحسب ما يليق بالصناعة لا على ما يجب على شخص
شخص فان هذا غير ممكن فان النجار والصايغ وساير
ارباب الصناعات انما تحصل في نفوسهم قوانين
واصول فيعرف النجار صورة الباب او السرير والصايغ
يعرف صورة الخاتم والتاج على الاطلاق فاما اشخاص
ما قام في نفسه فانها يستخرجها بتلك القوانين ولا يمكنه
تعرف الاشخاص لانها بلا نهاية وذلك ان كل باب وخاتم

انما يعمل

انما يعمل بمقدار ما ينبغي وعلى قدر الحاجة وبحسب المادة
والصناعة ولا يضمن الا معرفة الاصول فقط واذ
قد ذكرنا معنى الوسط في الاخلاق وما ينبغي ان يفهم
منه فلنذكر هذه الاوساط ليفهم منها الاطراف
التي هي رذايل وشرور فنقول اما الحكمة فهي وسط بين
السفه والبله واعني بالسفه هٰهنا استعمال القوة
الفكرية فيما لا ينبغي وكما لا ينبغي وسماه قوم الجربزة
واعني بالبله تعطيل هذه القوة واطراحها وليس ينبغي
ان تفهم البله هٰهنا نقصان الخلقة بل تعطيل
هذه القوة بالارادة واما الذكا فهو وسط بين الخبث
والبلادة فان احد طرفي كل وسط فهو افراط والاخر
تفريط اعني الزيادة عليه والنقصان منه والخبث
والدها والحيل الردية هي كلها الى جانب الزيادة
مما ينبغي ان يكون الذكا فيه واما البلادة والبله

والعجز عن ادراك المعارف فهي كلها الى جانب النقصان
من الذكاء . فاما الذكر فهو وسط بين النسيان الذي يكون
باهمال ما ينبغي ان يحفظ وبين العناية بما لا ينبغي
ان يحفظ واما التعقل وهو حسن التصور فهو وسط
بين الذهاب بالنظر في الشيء الموضوع الى اكثر مما هو
عليه وبين القصور بالنظر فيه عما هو عليه واما
سرعة الفهم فهو وسط بين اختطاف خيال الشيء
من غير احكام لفهمه وبين الابطاء عن فهم حقيقته
واما صفاء الذهن فهو وسط بين ظلمة في النفس
تاخر بها عن استخراج المطلوب وبين التهاب
يعرض فيها فيمنعها من استخراج المطلوب واما جودة
الذهن وقوته فهو وسط بين الافراط في التامل المالزم
من المقدم حتى يخرج عنه الى غيره وبين التفريط
فيه حتى يقصر عنه واما سهولة التعلم فهو وسط بين
المبادرة اليه بسلاسة لا يثبت معه صورة العلم وبين
بسهولة
التصعب

التصعب عليه وتعذره واما العفة فهي وسط بين
رذيلتين وهما الشره وخمود الشهوة واعني بالشره الانهماك
في اللذة والخروج فيها عما ينبغي واعني بخمود الشهوة السكون
عن الحركة التي يسلك نحو اللذة الجميلة التي يحتاج اليها
البدن في ضروراته ومنها ترخص فيه الشريعة او العقل
واما الفضائل التي تحت العفة فان الحيا وسط بين
رذيلتين احديهما الوقاحة والاخرى الخرق وانت تقدر
على ان تلحظ اطراف الفضائل الاخر التي هي رذائل وربما
وجدت لها اسما بحسب اللغة وربما لم تجد لها اسما
وليس يعسر عليك فهم معانيها والسلوك فيها على السبيل التي
سلكناها واما الشجاعة فهي وسط بين رذيلتين احديهما
الجبن والاخر التهور اما الجبن فهو الخوف مما لا ينبغي
ان يخاف منه واما التهور فهو وسط بين رذيلتين
احديهما السرف والتبذير والاخرى البخل والتقتير
اما التبذير فهو بذل ما ينبغي ان لا يستحق واما

وسط

التقتير فهو منع ما ينبغي ممن يستحق واما العدالة فهي
بين الظلم والانظلام اما الظلم فهو التوصل الى كثرة المقتنيات
من حيث لا ينبغي وكما لا ينبغي ~~واما الانظلام فهو الاستخذا~~
~~والاستجابة في المقتنيات من حيث لا ينبغي وكما لا~~ ينبغي
واما الانظلام فهو الاستخذا والاستجابة في المقتنيات
لمن لا ينبغي وكما لا ينبغي ولذلك يكون ابداً للجاير اموال
كثيرة لانه يتوصل اليها من حيث لا يجب ووجوه التوصل
اليها كثيرة فاما المتظلم فقنياته واموال يسيرة جداً
لانه يتركها من حيث يجب واما العادل فهو في الوسط
لانه يقتني الاموال من حيث يجب ويتركها من حيث لا يجب
فالعدالة فضيلة ينصف بها الانسان من نفسه ومن
غيره ان لا يعطي نفسه من المنافع اكثر وغيره اقل فاما
في الضار فبالعكس وهو ان لا يعطي نفسه اقل وغيره اكثر لكن
مستعمل المساواة التي هي يناسب ما بين الاشياء ومن
هذا المعنى اشتق اسمه اعني العدل واما الجاير فانه

يطلب

يطلب لنفسه الزيادة من النافع ولغيره النقصان
منه فاما في الاشياء الضارة فانه يطلب لنفسه النقصان
ولغيره الزيادة فقد ذكرنا الاخلاق التي هي خيرات وفضايل
واطرافها التي هي شرور ورذايل على طريق الاجمال وحددنا
ما يحد منها ورسمنا ما يرسم وسنشرح كل واحد منها
على الاستقصا فيما بعد ان شاء الله تعالى وينبغي ان نلخص
في هذا الموضع شكاً ربما لحق الطالب لهذه الفضايل
فنقول انا قد بينا فيما تقدم ان الانسان من بين جميع الحيوانات
لا يكتفي بنفسه في تكميل ذاته ولا بد له من معاونة
قوم كثيري العدد حتى تتم حياته طيبة ويجري امره
على السداد ولهذا قال الحكما ان الانسان مدني بالطبع اي
هو محتاج الى مدينة فيها خلق كثير لتتم له السعادة الانسانية
فكل انسان بالطبع وبالضرورة يحتاج الى غيره فهو لذلك
مضطر الى مصافاة الناس ومعاشرتهم العشرة الجميلة ومحبتهم
المحبة الصادقة لانهم يكملون ذاته ويتممون

بدر
الاستقصا

انسانيته وهو ايضا يفعل بهم مثل ذلك فاذا كان
كذلك بالطبع وبالضرورة فكيف يوثر العاقل العارف
بنفسه التفرد والتخلّي وتعاطي ما يرى الفضيلة في
غيره فاذا القوم الذين راوا الفضيلة في الزهد
وترك مخالطة الناس وتفردوا عنهم اما بملازمة المغارات
في الجبال واما ببناء الصوامع في المفاوز واما بالسياحة
في البلدان لا يحصل لهم شي من الفضايل الانسانية
التي عددناها وذلك ان لم يخالط الناس ويساكنهم
في المدن لا يظهر فيهم العفة ولا النجدة ولا السخاء
ولا العدالة بل تصير قواهم وملكاتهم ركبت فيهم باطلة
لانها لا تتوجه لا الى خير ولا الى شر فاذا بطلت ولم يظهر
افعالها الخاصة بها صاروا بمنزلة الجمادات والموتى
من الناس ولذلك يظنون ويظن بهم انهم أعفّاءُ
وليسوا باعفاء وانهم عدول وليسوا بعدول
وكذلك في ساير الفضايل اعني انه لم يظهر منهم اضداد هذه

التي

التي هي شرور ظن بهم الناس انهم افاضل وليست
الفضايل اعداما بل هي افعال واعمال يظهر عند مشاركات
الناس ومساكنتهم وفي المعاملات وضروب الاجتماعات
ونحن انا نُعلّم ونتعلّم الفضايل الانسانية التي بها نساكن
بها الناس ونخالطهم لنصل منها وبها الى سعادات
أُخر اذا صرنا الى حال أُخرى وتلك الحال غير موجودة لنا
الآن تمت المقالة الاولى من كتاب تهذيب الاخلاق

المقالة الثانية

الخُلُق حال للنفس داعية
لها الى افعالها من غير فكر ولا روية. وهذه الحال
ينقسم قسمين منها ما يكون طبيعيا ومن اصل المزاج
وذلك كالانسان الذي يجبن على اقل شي كالذي
يفزع من ادنى صوت يطرق سمعه او يرتاع من خبر
يسمعه وكالذي يضحك ضحكا مفرطا من ادنى شي يعجبه
وكالذي يغتم ويحزن من ايسر شيء يناله ومنها
اي من العادة
ما يكون مستفادا بالعادة والتدرب وربما كان

مبداوه بالروية والفكر ثم يستمر عليه اولا اولا
حتى يصير ملكة وخلقا ولهذا اختلف القدماء في الخلق
فقال بعضهم الخلق خاص بالنفس غير الناطقة وقال
بعضهم قد يكون للنفس الناطقة فيه حظ ثم اختلف
الناس ايضا اختلافا ثانيا فقال بعضهم من كان له خلق
طبيعي لم ينتقل عنه وقال اخرون ليس شي من الاخلاق
طبيعيا للانسان ولا هو غير طبيعي له وذلك انا مطبوعون
على قبوله وانما ننتقل بالتاديب والمواعظ اما سريعا
واما بطيا وهذا الراي الاخير هو الذي نختاره لانا
نشاهده عيانا ولان الراى الاول يؤدي الى ابطال
قوة التمييز والعقل والى رفض السياسات كلها وترك
الناس همجا مهملين والى ترك الاحداث والصبيان على
ما يتفق ان يكونوا عليه بغير سياسة ولا تعليم
وهذا ظاهر الشناعة جدا واما الرواقيون فظنوا
ان الناس يخلقون اخيارا بالطبع ثم يصيرون اشرارا

بعد

بعد مجالسة اهل الشرور وبالميل الى الشهوات
الردية التي لا يقمع بالتاديب فينهمكون فيها ثم يتوصل
اليها من كل وجه ولا يفكر في الحسن منها والقبح
واما قوم آخرون كانوا قبل هولاء فانهم ظنوا ان
الناس خلقوا من الطينة السفلى وهي كدر العالم
فهم لاجل ذلك اشرار بالطبع وانما يصيرون اخيارا
بالتاديب والتعليم الا ان فيهم من هو في غاية الشر
لا يصلحه التاديب ومنهم من ليس هو في غاية الشر
فيمكن ان ينتقل من الشر الى الخير بالتاديب من الصبى
ثم لمجالسة الاخيار واهل الفضل واما جالينوس فانه
راى ان الناس فيهم من هو خير بالطبع وفيهم من هو
شرير بالطبع وفيهم من هو متوسط بين هذين ثم
افسد المذهبين الاولين اللذين ذكرناهما اما الاول
فبان قال ان كان الناس اخيارا بالطبع وانما ينتقلون
الى الشر بالتعليم فبالضرورة ان يكونوا تعلموا الشر

اما من نفوسهم واما من غيرهم فان تعلموه من
غيرهم فان المعلمين الذين علّموهم الشر هم اشرار بالطبع
فليس الناس اذًا كلهم اخيارا بالطبع وان كانوا تعلّموه من
انفسهم فاما ان يكونوا فيهم قوة يشتاقون بها الى الشر
فقط فهم اذًا اشرار بالطبع واما ان يكون فيهم مع هذه
القوة التي تشتاق الى الشر قوة اخرى مشتاق الى الخير
الا ان القوة التي تشتاق الى الشر قاهرة غالبة للتي تشتاق
الى الخير وعلى هذا ايضا يكونون اشرار بالطبع واما الرأي الثاني
فانه افسده بمثل هذه الحجة وذلك انه قال ان كان كل الناس
اشرارا بالطبع فاما ان يكونوا تعلموا الخير من غيرهم او من
انفسهم ويعيد الكلام الاول بعينه ولما افسد هذين
المذهبين صحح رأي نفسه من الامور البينة الظاهرة وذلك صح
انه ظاهر جدا ان من الناس من هو خيّر بالطبع وفيهم
قليلون وليس ينتقل هؤلاء الى الشر ومنهم من هو شرير
بالطبع وهم كثيرون وليس ينتقل هؤلاء الى الخير ومنهم من هو

متوسطا

متوسط بين هذين وهؤلاء قد ينتقلون بمصاحبة الاخيار
ومواعظهم الى الخير وقد ينتقلون بمقارنة اهل الشر واغوائهم
الى الشر فاما ارسطاطاليس فقد بين في كتاب الاخلاق
وفي كتاب المقولات ايضا ان الشرير قد ينتقل بالتاديب
الى الخير ولكن ليس على الاطلاق لانه يرى ان تكرير المواعظ
والتاديب واخذ الناس بالسياسات الجيدة الفاضلة
لابد ان يؤثر ضروب التاثيرات في ضروب فمنهم من يقبل
التاديب ويتحرك الى الفضيلة بسرعة ومنهم من يقبله
ويتحرك الى الفضيلة بابطاء ونحن نؤلف من ذلك
قياسا وهو هذا كل خلق فقد يمكن تغييره ولا شيء مما
يمكن تغييره هو بالطبع فاذا ولا خلق واحد هو بالطبع
والمقدمتان صحيحتان والقياس منتج في الضرب
الثاني من الشكل الاول اما تصحيح المقدمة الاولى وهي ان
كل خلق فقد يمكن تغييره فقد تكلمنا عليه واوضحناه
وهو بيّن من العيان ومما استدل للعامة من وجوب

التاديب ونفعه وتاثيره في الاحداث والصبيان
ومن الشرايع الصادقة التي هي سياسة الله عز وجل
لخلقه واما تصحيح المقدمة الثانية وهي انه لا شي
مما يمكن تغييره هو بالطبع فهو ظاهر ايضا وذلك انا لا نروم
تغير شي مما هو بالطبع ابدا فان احدا لا يروم ان يغير حركة
النار التي الى فوق بان يعودها الى اسفل ولا ان يعود الحجر
حركة العلو يروم بذلك ان يغير حركته الطبيعية الى اسفل
ولو رامه ما صح له ابدا تغير شي من هذا او ما جرى
مجراه اعني الامور التي هي بالطبع فقد صحت المقدمتان (بدر المقدمتان)
وصح التاليف في الشكل وهو الضرب الثاني منه وصار
برهانا فاما مراتب الناس في قبول هذا الادب الذي
سميناه خلقا والمسارعة الى تعلمه والحرص عليه
فانها كثيرة وهو يشاهد ويعاين فيهم وخاصة في الاطفال
فان اخلاقهم يظهر فيهم منذ مبدا نشوهم ولا يسترونها
بروية ولا فكر كما يفعله الرجل التام الذي انتهى في نشوه

وكماله

(اي ينجيه)

وكماله الى حيث يعرف من نفسه ما يستقبح منه فيخفيه
بضرب من الحيل والافعال المضادة لما في طبعه وانت (ظار المفادة)
تتامل من اخلاق الصبيان واستعدادهم لقبول الادب (بدر واستعدادهم)
او نفورهم عنه وما يظهر في بعضهم من القحة (اي بعدم الحياء) وفي
بعضهم من الحياء وكذلك ما يرى فيهم من الجود والبخل
والرحمة والقسوة والحسد وضده من الاحوال المتفاوتة
ما تعرف به مراتب الانسان في قبول الاخلاق الفاضلة
وتعلم منه انهم ليسوا على مرتبة واحدة وان فيهم المواتي
والممتنع والسهل والسلس والفظ العسر والخير والشرير
والمتوسط ما بين هذه الاطراف في مراتب لا تحصى كثيرة واذا
اهملت الطباع ولم تروض بالتاديب والتقويم نشا
كل انسان على سوم طباعه وبقي عمره كله على الحالة التي
كان عليها في الطفولية وتبع ما وافقه بالطبع اما
الغضب واما اللذة واما الزعارة واما الشره واما
غير ذلك من الطباع المذمومة والشريعة هو يقوم

وتعوّدهم الافعال المرضية وتعدّ نفوسهم لقبول الحكمة
وطلب الفضايل والبلوغ الى السعادة الانسية بالفكر
الصحيح والقياس المستقيم وعلى الوالدين اخذهم به وبساير
الاداب الجميلة بضروب السياسات من الضرب ان احوجوا
او التوبيخات ان اقنعت فيهم او الاطماع في الكرامات
او غيرها مما يميلون اليه من الراحات او يحذرونه
من العقوبات حتى اذا تعوّدوا ذلك واستمروا عليه
مدة من الزمان كثيرة امكن فيهم حينئذ ان يعلموا
براهين ما اخذوه تقليدا وتنبهوا على طرق
الفضايل واكتسابها والبلوغ الى غاياتها بهذه الصناعة
التي نحن بسبيلها والله الموفق والمعين وهو حسبنا
وللانسان في ترتيب هذه الاداب وسياقتها اولاً
اولاً الى الكمال الاخير طريق طبيعي يتشبه فيها بفعل
الطبيعة وهو ان ينظر الى هذه القوى التي تحدث
فينا ايها اسبق الينا وجوداً فنبداء بتقويمها

ثم بما يليها

ثم بما يليها على النظام الطبيعي وهو بيّن ظاهر
وذلك ان اول ما يتميز به عن نوع نوع الى ان يصير الى
الانسانية فلذلك يجب ان نبداء بالشوق الذي
يحصل فينا للغذاء فنقومه ثم بالشوق الذي يحصل فينا
الى الغضب ومحبة الكرامة فنقومه ثم ناخذه الشوق
الذي يحصل فينا الى العلوم والمعارف فنقومه
وهذا الترتيب الذي قلنا انه طبيعي انما حكمنا فيه
بذلك لما يظهر فينا منذ اول ما ننشأ اعني ان نكون
اجنة ثم اطفالاً ثم ناساً كاملين ويحدث فينا
هذه القوى مرتبة فاما ان هذه الصناعة هي افضل
الصناعات كلها اعني صناعة الاخلاق التي تُعنى
بتجويد افعال الناس بما هو انسان فيتبين مما اقول
لما كان الجوهر الانساني فعلٌ خاص لا يشاركه فيه شي من
موجودات العالم كما بيناه فيما تقدم وكان الانسان
اشرف موجودات عالمنا ثم لم تصدر عنه افعاله

يحدث فينا هو الشيء
العام للحيوان والنبات
كله ثم لا يختص بشيء شيء

بلغ

بحسب جوهره وشبهناه بالفرس الذي اذا لم يصدر عنه
افعال الفرس على التمام استعمل مكان الحمار بالاكاف
او مكان الغنم بالذبح وكان عدمه اروح له من وجوده
وجب ان يكون الصناعة التي تعنى بتجويد افعال
الانسان حتى تصدر عنه افعاله كلها تامة كاملة بحسب
جوهره فيرفعه عن رتبة الاخس التي يستحق بها المقت
من الله عز وجل والحصول في العذاب الاليم اشرف الصناعات
كلها واكرمها فاما ساير الصناعات الاخر فمراتبها
من الشرف بحسب مراتب جوهر الشي الذي كان يستصلحه
وهذا ظاهر جدا من تصفح الصناعات لان فيها
الدباغة التي تعنى باستصلاح جلود البهايم الميتة
وفيها صناعة الطب والفلاحة التي تعنى باستصلاح
الجواهر الشريفة وهكذا الهمم المتفاوتة التي ينصرف
بعضها الى العلوم الدنية وبعضها الى العلوم
الشريفة واذا كانت جواهر الموجودات متفاوتة

في الشرف

في الشرف في الجماد والنبات والحيوان اما في الحيوان
فكجوهر الديدان والحشرات اذا قيس الى جوهر الانسان واما
في جواهر الموجودات الاخر فظاهر لمن اراد ان يحصيها
فالصناعة والهمة التي تنصرف الى اشرفها اشرف من الصناعة
والهمم التي تنصرف الى الادون منها ويجب ان تعلم
ان اسم الانسان وان كان يقع على افضلهم وعلى ادونهم
فان بين هذين الطرفين اكثر مما بين كل متضادين من
البعد فان الشاعر الذي قال شعر ولم ار امثال
الرجال تفاوتت الى المجد حتى عد الف بواحد
وان كان عنده انه قد بالغ فقد قصر والخبر المروي
عن النبي صلى الله عليه وسلم اني وزنت بامتي فرجحت
بهم اصدق واصح وليس هذا في الانسان وحده بل في
كثير من الجواهر الاخر وان كان في الانسان اكثر واشد
تفاوتا فان بين السيف الصمصام وبين السيف
المعروف بالكهام تفاوتا عظيما وكذلك الحال في التفاوت

الذى بين الفرس الكريم وبين البرذون المقرف
فمن امكنه ان يرقى بالصناعة ادون هذه الجواهر
مرتبة الى اعلاها فاشرف به وبصناعته ما اكرمه
وافضله فاما الانسان من بين هذه الجواهر فهو مستعد
بضروب من الاستعدادات لضروب من المقامات
وليس ينبغى ان يكون الطمع في استصلاحه على مرتبة واحدة
وهذا سيتبين فيما بعد بمشية الله عز وجل الا ان
الذي ينبغي ان نعلمه الان ان وجود الجوهر الانسانى
معلق بقدرة فاعله وخالقه تبارك وتعالى وتقدس
اسمه فاما تجويد جوهره فقد فوضه الى الانسان
فهو متعلق بارادته فاعرف هذه الجملة الى ان تلخص في
موضعها انشاء الله تعالى وقد تقدمنا فى صدر هذا
الكتاب فقلنا انه ينبغي ان نعرف نفوسنا ما هي
ولاي شئ هي ثم قلنا ان لكل جوهر موجود كمالا
خاصا به وفعلا لا يشاركه فيه غيره من حيث هو ذلك

الشئ

الشئ وبينا ذلك غاية البيان فى الرسالة المعدة
واذا كان ذلك محفوظا نحن مضطرون الى ان نعرف
الكمال الخاص بالانسان والفعل الذي لا يشاركه فيه غيره
من حيث هو انسان لنحرص عليه طلبه وتحصيله ونجتهد
فى البلوغ الى غايته ونهايته ولما كان الانسان مركبا
لم يجز ان يكون كماله وفعله الخاص به كمال بسايطه
وافعالها الخاصة بها والا كان وجود المركب باطلا
كالحال فى الخاتم والسرير فاذا له فعل خاص به من حيث
هو مركب وانسان لا يشاركه فيه شئ من الموجودات
الاخر فافضل الناس اقدرهم على اظهار فعله الخاص
به والزمهم له من غير تلون فيه ولا اخلال به
فى وقت دون وقت واذا عرف الافضل فقد عرف
الانقص على اعتبار الضد فالكمال الخاص بالانسان كمالان
وذلك ان له قوتين احديهما العالمة والاخرى العاملة
فلذلك تشتاق باحدى القوتين الى المعارف والعلوم و يشتاق

بالاخرى الى نظم الامور وترتيبها وهذان الكمالان هما
اللذان نص عليهما الفلاسفة فقالوا الفلسفة ينقسم
قسمين الى الجزء النظري والى الجزء العملي فاذا اكمل الانسان
بالجزء النظري والجزء العملي فقد سعد السعادة التامة
اما كماله الاول باحدى قوتيه اعنى العالمة وهي التي
يشتاق بها الى العلم فهو ان يصير في العلم بحيث يصدق
نظره وتصح بصيرته وتستقيم رويته فلا يغلط في
اعتقاد ولا يشك في حقيقة وينتهي في العلم بالامور الموجودات
على الترتيب الى العلم الالهي الذي هو آخر مرتبة العلوم
ويثق به ويسكن اليه ويطمئن قلبه وتذهب
حيرته ويتجلى له المطلوب الاخير حتى يتحد به وهذا
الكمال قد بينا الطريق اليه واوضحنا سبله في كتب آخر
واما الكمال الثاني يكون بالقوة الاخرى اعنى القوة العاملة
وهو الذي نقصده في كتابنا هذا وهو الكمال الخلقي
ومبداؤه من ترتيب قواه وافعاله الخاصة بها حتى

لا يتغالب

لا يتغالب وحتى يتسالم هذه القوى فيه وتصدر
افعاله بحسب قوته المميزة منتظمة مرتبة كما ينبغي
وينتهي الى التدبير المدني الذي يُرتَّبُ فيه الافعالُ
والقُوى بين الناس حتى ينتظم ذلك الانتظام
ويسعد واسعادة مشتركة كما كان ذلك في الشخص
الواحد فاذاً الكمال الاول النظري منزلته منزلة الصورة
والكمال الثاني العملي منزلته منزلة المادة وليس
يتم احدهما الا بالاخر لان العلم مبداء والعمل تمام
والمبداء بلا تمام يكون ضايعا والتمام بلا مبدا يكون
مستحيلا وهذا الكمال هو الذي سميناه غرضا
وذلك لان الغرض والكمال بالذات هما شئ واحد وانما
يختلفان بالاضافة فاذا نظر اليه وهو بعد في نفس
الانسان ولم يخرج الى الفعل فهو غرض فاذا خرج الى
الفعل وتم فهو كمال وكذلك الحال في كل شئ لان البيت
اذا كان متصورا للباني وكان عالما باجزائه وتركيبه

وساير احواله كان عرضا فاذا اخرجه الى الفعل وتممه
كان كمالا فقد صح من جميع ما قدمناه ان الانسان
يصير الى كماله ويصدر عنه فعله الخاص به اذا علم الموجودات
كلها اي يعلم كلياتها وحدودها التي هي ذواتها لا اعراضها
وخواصها التي يصير بها بلا نهاية.. فانك اذا علمت كليات
الموجودات فقد علمت جزئياتها بنحو ما لان الجزئيات
لا تخرج عن كلياتها فاذا كملت هذا الكمال فتممه بالفعل
المنظوم ورتب القوى الملكات فيك ترتيبا علميا
كما سبق علمك به فاذا انتهيت الى هذه الرتبة فقد
صرت عالما وحدك واستحققت ان تسمى عالما صغيرا
لان صور الموجودات كلها فقد حصلت في ذاتك
فصرت انت هي بنحو ما ثم نظمتها بافعالك على استطاعتك
فصرت فيها خليفة لمولاك خالق الكل فلم تخط فيها
ولم تخرج عن نظامه الاول الحكمي.. فتصير حينئذ عالما
تاما والتام من الموجودات هو الدايم الوجود والدايم الوجود

هو الباقي

هو الباقي في بقاء سرمديا فلا يفوتك حينئذ شيء من النعيم
المقيم لانك بهذا الكمال مستعد لقبول الفيض من المولى
دايما ابدا وقد قربت منه القرب الذي لا يجوز ان
يحول بينك وبينه حجاب وهذه هي الرتبة العليا
والسعادة القصوى ولولا ان الشخص الواحد من اشخاص
الناس يمكنه تحصيل هذه المنزلة في ذاته وتكميل
صورته بها واتمام نقصانه بالترقي اليها لكان
سبيله سبيل اشخاص الحيوانات الاخر او كسبيل اشخاص
النبات في مصيرها الى الفناء بالاستحالات التي تلحقها
والنقصانات التي لا سبيل الى تماماتها ولا استحال
فيها البقاء الابدي والنعيم السرمدي بمجاورة
رب العالمين ودخول جنته ومن لا يتصور هذه
الحالة ولا ينتهي الى علمها من المتوسطين في العلم يقع له
شكوك فيظن ان الانسان اذا انتقض تركيبه الجسماني
بطل وتلاشى كالحال في الحيوانات الاخر والنبات فحينئذ

يستحق اسم الالحاد ويخرج عن سمة الحكمة وسنة الشريعة
وقد ظن قوم ان كمال الانسان وغايته هما في اللذات
الحسية وانما هي الخير المطلوب والسعادة القصوى
وظنوا ان جميع قواه الاخر انما ركبت فيه من اجل
هذه اللذات والتوصل اليها وان النفس الشريفة
التي سميناها ناطقة انما وهبت له ليرتب بها الافعال
ويميزها ثم يوجهها نحو هذه اللذات لتكون الغاية
الاخيرة هي حصولها له على النهاية والغاية وظنوا ايضاً
ان قوى النفس الناطقة اعني الذكر والحفظ والروية
كلها تراد لتلك الغاية قالوا وذلك ان الانسان
اذا تذكر اللذة التي هي كانت حصلت له بالمطاعم
والمشارب والمناكح واشتاق اليها واحب معاودتها
فقد صارت منفعة الذكر والحفظ انما هي للذة
وتحصيلها ولاجل هذه الظنون التي وقعت لهم
جعلوا النفس المميزة الشريفة كالعبد الممتهن وكالاجير
المستعمل

المستعمل في خدمة النفس الاخرى الشهوية لتخدمها
في الماكل والمشارب والمناكح وترتيبها لها وتعدها
اعدادا كاملا موافقا وهذا هو راي الجمهور من العامة
الرعاع وجهال الناس السقاط والى هذه الخيرات
التي جعلوها جعلوها غاياتهم تشوقوا عند ذكر
الجنة والقرب من باريهم عز وجل وهي التي يسلونها
الرب تعالى في دعواتهم وصلواتهم واذا خلوا بالعبادات
وتركوا الدنيا وزهدوا فيها فانما ذلك منهم على جهة
المتاجرة والمرابحة في هذه بعينها كانهم تركوا قليلها
ليصلوا الى كثيرها واعرضوا عن الفانيات منها ليبلغوا
الى الباقيات الا انك تجدهم مع هذه الاعتقادات وهذه
الافعال اذا ذكر عندهم الملائكة والخلق الاعلى اشرف
وما نزههم الله عنه من هذه القاذورات
علموا انهم بالجملة اقرب الى الله عز وجل واعلى رتبة
من الناس وانهم غير محتاجين الى شيء من حاجات البشر

يعلمون ان خالقهم وخالق كل شئ تعالى الذى تولّى
ابداع الكل هو متنزه عن هذه الاشيا متعالٍ عنها
غير موصوف بها والتمتع مع التمكن من ايجادها
لنفسه وان الناس يشاركون فى هذه اللذات
الخنافس والديدان وصغار الحشرات والهمج من الحيوان
وانما يناسبون الملايكة بالعقل والتميز ثم يجمعون بين
هذه الاعتقادات الاول وهذا هو العجب العجيب وذلك
انهم يرون عيانا ضروراتهم بالادنى الذى يلحقهم
بالجوع والعُرى وضروب النقصانات وحاجاتهم والعرى
الى مداواتها بما يدفعها عنهم فاذا زالت آثارها
وعادوا الى حال السلامة منها التذوا بذلك ووجدوا
الراحة لذة ولا يشعرون انهم اذا اشتاقوا الى لذة
المأكل وقد اشتاقوا اولا الى الم الجوع وذلك انهم لم يالموا
بالجوع لم يلتذوا بالاكل وهكذا الحال فى ساير اللذات
الاُخَر الا ان هذه الحال فى بعضها اظهر منها فى بعض
وسنتكلم

وسنتكلم على ان صورة الجميع واحدة وان اللذات
كلها انما تحصل للملتذ بعد الالم يلحقه لان اللذة
هى راحة من الم وان كل لذة حسية انما هى خلاص
من الم او اذًى او الم فى غير هذا الموضع وسيظهر عند ذلك
ان من رضى لنفسه بتحصيل اللذات البدنية وجعلها
وجعلها غايته واقصى سعادته فقد رضى باخس
العبودية لاخس الموالى لانه يصير نفسه الكريمة
التى تناسب بها الملايكة عبدا للنفس الدنية التى تناسب
بها الخنازير والديدان وخسايس الحيوانات التى يشاركه
فى هذه الحال وقد تعجب جالينوس فى كتابه الذى سماه
اخلاق النفس من هذا الراى وكثر استجهاله للقوم
الذين هذه مرتبتهم من العقل الا انه قال ان هؤلاء
الخنثاء الذين سيرتهم اسوء سيرة واردؤها اذا
[illegible] وجدوا انسانا هذا رايه ومذهبه نصروه وتولوه
به ودعوا اليه ليوهموا بذلك انهم غير متفردين بهذا

الطريقة لانهم يظنون انهم متى وصفوا هذا الفضل
والنبل من الناس بمثل ما هم عليه كان ذلك عذرا لهم
وتمويها على قوم اخرين في مثل طريقتهم وهؤلاء هم
الذين يفسدون الاحداث بايهامهم ان الفضيلة
هي ما تدعوهم اليه طبيعة البدن من اللذات وان
تلك الفضايل الاخر الملكية اما تكون باطلة ليست
بشيء البتة واما ان يكون غير ممكنة لاحد من الناس
والناس ما يكون بالطبع الجسداني الى الشهوات فيكثر
اتباعهم ويقل الفضلا واذا تنبه الواحد بعد الواحد
منهم على ان هذه اللذات انما هي لضرورة الجسد وان
بدنه مركب من الطبايع المتضادة اعني الحرارة والبرودة
واليبوسة والرطوبة وانه يعالج بالماكل والمشارب
امراضا تحدث به عند الانحلال ليحفظ تركيبه ابدا
على حالة واحدة ما امكن ذلك فيه وان علاج المريض
ليس بسعادة تامة والراحة من المرض ليس بغاية مطلوبة
ولا خير محض

ولا خير محض وان السعيد التام هو من لا يعرض له مرض
البتة وعرف مع ذلك ان الملائكة الابرار الذين اصطفاهم
الله تعالى بعزته لا يلحقهم هذه الالام فلا يحتاجون
الى مداواتها بالاكل والشرب وان الله تعالى منزه متعال
عن هذه الاوصاف عارضوه بان بعض البشر اشرف
من الملائكة وان الله اجل من ان يذكر مع الخلق وشاغبوه
وسفهوا رايه واوقعوا له شبها باطلة في صحة ما تنبه
عليه وارشده عقله اليه والعجب الذي لا ينقضي
هو انهم مع رايهم هذا اذا وجدوا واحدا من الناس
قد نزل طريقتهم التي يميلون اليها واستهان بالتمتع
واللذة وصام وطوى واقتصر على نبات الارض
عظموه وكثر تعجبهم منه واهلوه للمراتب وزعموا انه
صفي الله ووليه وانه شبيه بالملك وانه ارفع طبقة
من البشر ويخضعون له ويذلون غاية الذل ويعدون
انفسهم اشقياء بالاضافة اليهم والسبب في ذلك

هو انهم وان كانوا من افحش الراي وسفاهته
على ماترى فان فيهم من تلك القوة الاخرى الكريه الكريمة
المميزة وان كان ضعيفة ما يرى فضيلة ذوى الفضايل
فيضطرون الى اكرامهم وتعظيمهم واذا كانت القوى ثلاثا
كما قلنا مرارا فادونها النفس البهيمية واوسطها
النفس السبعية واشرفها النفس الناطقة والانسان
انما صار انسانا بافضل هذه النفوس اعنى الناطقة
وبها شارك الملايكة وبها باين البهايم فاشرف الناس
من كان حظه من هذه النفس اكثر وانصرافه اليها
اتم واوفر ومن غلبت عليه احدى النفسين الاخريين
انحط عن مرتبة الانسانية بحسب غلبة تلك النفس
عليه فانظر اين تضع نفسك واين تحب ان تنزل
من المنازل التي رتبها الله عز وجل للموجودات
فان هذا امر موكول اليك مردود الى اختيارك فان شيت
فانزل في منازل البهايم فانك تكون منهم وان شيت

فانزل

فانزل في منازل السباع وان شيت ففي منازل الملايكة
وكن منهم وفي كل واحد من هذه المراتب مقامات
كثيرة فان بعض البهايم اشرف من بعض وذلك
لقبوله التاديب لان الفرس انما شرف على الحمار لقبوله
الادب وكذلك البازي في فضله على الغراب فاذا تاملت
الحيوان كله وجدت القابل للتاديب الذي هو اثر
النطق اعنى النفس الناطقة افضل من سايره
وهو يتدرج في ذلك الى ان يصير الى الحيوان الذي
هو في افق الانسان اعنى الذي هو اكمل البهايم وهو في
اخس مرتبة الانسانية وذلك ان اخس الناس
هو من كان قليل العقل قريبا من البهيمة وهم القوم
الذين في اقاصي الارض المعمورة وسكان اخر ناحية
الجنوب والشمال لا ينفصلون عن القرود الا بشي يسير
من التمييز وبذلك القدر يستحقون اسم الانسانية
ثم يتميزون ويتزايدون في هذا المعنى حتى يبلغوا

الى وسط الاقاليم ويعتدل فيهم المزاج القابل لصورة
العقل فيصير فيهم العاقل التام والمميز العالم ثم
يتفاضلون ايضا في هذا المعنى الى ان يصيروا الى الغاية
ما يمكن الانسان ان يبلغ اليه من قبول قوة العقل
والنطق فيصير حينئذ في الافق الذي بين الانسان
والملك ويصير فيهم القابل للوحي والمطيق بحمل الحكمة
فيفيض عليه قوة العقل ويسيح اليه نور الحق و
لا حالة للانسان اعلى من هذه ما دام انسانا
ثم ارجع القهقرى الى النظر في الرتبة الناقصة
التي هي ادون مراتب الانسانية فانك تجد القوم
الذين يضعف فيهم القوة الناطقة وهم القوم
الذين ذكرنا انهم في افق البهايم تقوى فيهم النفس
البهيمية فيميلون الى شهواتها الماخوذة بالحواس
كالماكول والمشروب والملبوس وساير النزوات
البهيمية الشبيهة بها وهولاء هم الذين تجذبهم

الشهوات

تكبوها
الشهوات القوية بقوة نفوسهم البهيمية حتى ير
ولا يرتدعوا عنها بقدر ما يكون فيهم من القوة العاقلة
ويستحيون منها حتى صاروا يستتروا بالبيوت وتبادروا
بالظلمات اذا استموا باللذة تخصهم وهذا الحيا منهم
هو الدليل على قبحها فان الجهل بالاطلاق هو الذي يتظاهر
به ويستحب اخراجه واذاعته وهذا القبح ليس بشيء
اكثر من النقصانات اللازمة للبشر وهي التي تشتاقون
الى ازالتها فافحشها هو انقصها احوجها الى الستر والدفن
ولو سالت القوم الذين يعظمون امر اللذة ويجعلونها
الخير المطلوب والغاية الانسانية لم تكتمون الوصول
الى اعظم الخيرات وما بالكم تعدون مواقعتها خيرا ثم
تسترونها وترون سترها وكتمانها فضيلة ومروة
وانسانية والمجاهرة بها واظهارها بين اهل الفضل
وفي مجامع الناس خساسة وقحة اظهر من انقطاعهم
وتبلدهم في الجواب مما تعلم به سوء مذهبهم وخبث

من

وانقصها

سيرتهم واقلهم حظا من الانسانية اذا راى انسانًا
فاضلا احتشمه ووقره واحب ان يكون مثله الا الشاذ
منهم الذي بلغ من خساسة الطبع ونزارة الانسانية
ووقاحة الوجه الى ان يقيم على حصة ما هو عليه من غير محبة
لرتبة من هو افضل منه فاذًا اجب على العاقل ان يعرف
ما ابتُلي به الانسانُ من هذه النقصانات التي في جسمه
وحاجاته الضرورية الى اذالتها وتكميلها اما بالغذا
الذي يحفظ اعتدال مزاجه وقوام حيوته فينال منه
قدر الضرورة في كماله ولا يطلب اللذة بعينها بل قوام الحيوة
الذي تتبعه اللذة فان تجاوز ذلك قليلاً فبقدر ما يحفظ
رتبته في مروته ولا ينسب الى الدناءة والبخل بحسب حاله
ومرتبته بين الناس واما باللباس الذي يدفع اذى الحر
والبرد ويستر العورة فان تجاوز ذلك فبقدر ما لا يُستحقر
ولا يُنسَبُ الى الشح على نفسه والى ان يسقط بين اقرانه
واهل طبقته واما بالجماع الذي يحفظ نوعه وتبقى به

صورته

صورته اعني طلب النسل فان تجاوز ذلك فبقدر ما لا يخرج
به عن السنة ولا يتعدى ما يملكه الى ما يملكه غيره ثم
يلتمس الفضيلة في نفسه العاقلة التي بها صار انسانا وينظر
الى النقصانات التي في هذه النفس خاصة فيروم تكميلها
بطاقته وجهده فان هذه هي الخيرات التي لا تُشترى
واذا وُصل اليها لا يُمتنع منها بالحياء ولا يُتوارى عنه
بالحيطان والظلمات ويتظاهر بها ابدا بين الناس
وفي المحافل وهي التي بها يكون بعض الناس افضل من
بعضٍ وتغذو هذه النفس بغذايها الموافق لها
المتمم لنقصاناتها كما يغذو باغذيتها الملايمة لها
فان غذاء هذه هو العِلم والزيادة في المعقولات
والارتياض بالصدق في الاراء وقبول الحق حيث كان
ومع من كان والنفور من الباطل والكذب كيف كان
ومن اين جاء فمن اتفق له في الصبى ان يربى على ادب
الشريعة ويوخذ بوظايفها وشرايطها حتى يتعودها

ويعضهم اكثر انسانية من بعض ح

ثم ينظر بعد ذلك في كتب الاخلاق حتى يتاكد تلك الآداب
والمحاسن في نفسه بالبراهين ثم ينظر في الحساب والهندسة
حتى يتعود صدق القول وصحة البرهان فلا يسكن الا اليها
ثم يتدرج كما رسمناه في كتابنا الموسوم بترتيب السعادات
ومنازل العلوم حتى يبلغ الى اقصى مرتبة الانسان فهو
السعيد الكامل فليكثر حمد الله عز وجل على الموهبة
العظيمة والمنة الجسيمة ومن لم يتفق له ذلك في مبداء
نشئه ثم ابتلى بان يربيه والداه على رواية الشعر الفاحش
وقبول اكاذيبه واستحسان ما يوجد فيه من ذكر القباح
ونيل اللذات كما يوجد في شعر امرئ القيس والنابغة
واشباههما ثم صار بعد ذلك الى رؤساء يقربونه على
روايتها وقول مثلها ويجزلون له العطية وامتحن باقران
يساعدونه على تناول اللذات الجسمانية ومال طبعه
الى الاستكثار من المطاعم والمراكب والزينة وارتباط
الخيل العزة والعبيد الروقة كما اتفق لي مثل ذلك في

بعض

بعض الاوقات ثم انهمك فيها واشتغل بها عن السعادة
التي اهل لها فليعد جميع ذلك شقاء لا نعيما وخسرانا لا ربحا
وليجتهد على الترتيب التدريج الى فطام نفسه منها
وما اصعب ذلك الا انه على كل حال خير من التمادي في الباطل
وليعلم الناظر في هذا الكتاب انني خاصة قد تدرجت
الى فطام نفسي بعد الكبر واستحكام العادة وجاهدتها
جهادا عظيما ورضيت لكم ايها الفاحص عن الفضائل
والطالب للادب الحقيقي بما رضيت لنفسي بل تجاوزت
في النصيحة لكم الان اثرت عليكم بما فاتني في ابتداء عمري
امري لتتداركه انت ودللتك على طريق النجاة قبل ان تتيه
في مفاوز الضلالة وقدمت لك السفينة قبل ان تغرق
في بحور المهالك فالله الله في نفوسكم معاشر الاخوان
والاولاد واستسلموا الحق وتادبوا بالادب الحقيقي المذكور
خذوا الحكمة البالغة وانتهجوا الصراط المستقيم وتصوروا
حالات انفسكم وتذكروا اقويها واعلموا ان اصح شكل

ضُرب لكم من نفوسكم الثلث التي مر ذكرها في المقالة الاولى
مثل ثلثة حيوانات مختلفة جمعت في رباط واحد ملك
وخنزير وسبع فايها غلب بقوته قوة الباقين كان
الحكم له وليعلم من تصور هذا المثل ان النفس لما كانت
جوهرا غير جسم ولا فيها شيء من قوى الجسم واعراضه
كما بينا ذلك في صدر الكتاب كان اتحادها واتصالها
بخلاف اتحاد الاجسام واتصال بعضهم ببعض وذلك
وذلك ان هذه الانفس الثلث اذا اتصلت صارت
شيئا واحدا ومع انها تكون شيئا احدا في باقيه
التغاير باقية القوى تتوثر الواحدة بعد الواحدة
حتى كانها لم يتصل بالاخرى ولم يتحد بها وتتحدى
ايضا الواحدة للاخرى حتى كانها غير موجودة ولا لها قوة
تنفرد بها وذلك ان اتحادها ليس بان يتصل
نهايتها ولا بان يتلاقى بسطوحها كما يكون ذلك في
الاجسام بل تصير في بعض الاحوال شيئا واحدا وفي بعض
الاحوال

الاحوال اشياء مختلفة بحسب ما يهيج قوة بعضها
او تسكن ولذلك قال قوم ان النفس واحدة ولها
قوى وقال آخرون بل هي واحدة بالذات كثيرة بالموضوع
وهذا شيء يخرج الكلام فيه عن غرض الكتاب وسيمونك
في موضعه وليس يضرك في هذا الوقت ان يعتقد اي
هذه الاراييب بعد ان يعلم ان بعض هذه كريمة ادبة
بالطبع وبعضها مهينة عادمة للادب بالطبع
وليس فيها استعداد لقبول الادب وبعضها عادمة
للادب الا انها تقبل التاديب وتنقاد للتي هي
ادبة اما الكريمة الادبية بالطبع فالنفس الناطقة
واما العادمة للادب وهي مع ذلك غير قابلة له فهي
النفس البهيمية واما التي عدمت الادب ولكنها
تقبل وتنقاد له فهي النفس الغضبية وانما وهب الله
عز وجل لنا هذه النفس خاصة لنستعين بها على
تقديم البهيمية التي لا تقبل الادب وقد شبه القدماء

الانسان وحاله في هذه الانفس الثلث بانسان راكب
بهيمة قوية يقود كلبا قويا او فهدا للقنص فان كان
الانسان من بينهم هو الذي يروض دابته وكلبه
يصرفهما ويطيعانه في سيره وتصيده وساير متصرفاته
فلا شك في رغد العيش المشترك بين الثلثة وحسن احوالهم
لان الانسان يكون مرفها في مطالبه يجري فرسه حيث
يجب وكما يجب ويطلق كلبه ايضا كذلك فاذا نزل
واستراح اراحهما معه واحسن القيام عليهما
وازاح علتهما في المطعم والمشرب وكفاية الاعداء
وغير ذلك من مصالحهما واذا كانت البهيمية هي الغالبة
ساءت حال الثلثة كلها وكان الانسان مضعوفا عندها
فلم تطع فارسها وعاثت فان رات عشبا من بعيد
عدت نحوه وتعسفت في عدوها وعدلت عن الطريق
النهج فاعترضتها الاودية والوهاد والشوك والشجر
فتقحمتها وتورطت فيها ولحق فارسها ما يلحق مثله

جمع الوهد وهو الارض الغور

في هذه

في هذه الاحوال فتصيبها جميعا من انواع المكاره والاشراف
على الهلكة ما لا خفاء به وكذلك ان قوي الكلب لم يطع
صاحبه فان راى من بعيد صيدا او ما يظنه صيدا
اخذه نحوه فجذب الفرس وفارسه ولحق الجميع من
الضر والضرر اضعاف ما ذكرناه وفي تصور هذا المثل
الذي ضربه القدماء تنبيه على حال هذه النفوس بعضها
عند بعض ودلالة على ما وهبه الله عز وجل للانسان
ومكنه وعرضه له وما يصيبه بعصيان خالقه تعالى
فيها عند اهمال السياسة واتباعه امر هاتين القوتين
وتعبده لهما الله ان ينبغي ان يتبعاه بتامره عليهما
فمن اسوا حالا ممن اهمل سياسة الله عز وجل وضيع
نعمته عليه وترك هذه القوى فيه هايجة مضطربة
تتغالب وصار الرئيس منهما مرؤوسا والملك فيها مستعبدا
يتقلب معها في المهالك حتى تتمزق ويتمزق هو ايضا
نعوذ بالله من الانتكاس في الخلق الذي سببه طاعة

الشياطين واتباع الا بالله فليست الاشارة بها الى غير
هذه القوى التي وصفنا احوالها ونسال الله عصمته ومعونته
على تهذيب النفوس حتى ينتهي فيها الى طاعته التي هي
مصالحنا وبها نجاتنا وخلاصنا الى الفوز الاكبر والنعيم
السرمد وقد شبه الحكما من اهمل سياسة نفسه العاقلة
وترك سلطان الشهوة ومحبة الكرامة تستولى عليها
برجل معه ياقوتة شريفة حمراء لا قيمة لها من الذهب والفضة
جلالة ونفاسة وكان بين يديه نار تضطرم فرماها
في جاحمها حتى صارت كلسا لا منفعة فيها فخسرها وخسر
منافعها فقد علمنا الان ان النفس العاقلة اذا عرفت
شرف نفسها واحست بمرتبتها من الله عز وجل احسنت
خلافته في ترتيب هذه القوى وسياستها ونهضت
بالقوة التي اعطاها الله اياها الى محلها من كرامة الله
ومنزلتها من العلو والشرف ولم تخضع للسبع ولا
للبهيمة بل تقوم النفس الغضبية التي سميناها سبعية

ويقودها

ويقودها الى الادب ستحملها على حسن طاعتها ثم
تستنهضها في اوقات هيجان النفس البهيمية وحركتها البهيمية(?)
الى الشهوات حتى يقمع بهذه سلطان تلك ويستخدمها
في تاديبها ويستعين بقوة هذه على ما تاتي تلك وذلك
ان هذه النفس الغضبية قابلة للادب قوية على قمع الاخرى
كما قلنا وتلك النفس البهيمية عادمة للادب غير قابلة له
فاما النفس الاخرى الناطقة اعني العاقلة فهي كما قال
افلاطن بهذه الالفاظ اما هذه فهي بمنزلة الذهب
في اللين والانعطاف واما تلك فبمنزلة الحديد في الصلابة
والامتناع فان اثرت الفعل الجميل في وقت وجاذبتك
القوة الاخرى الى اللذة والى خلاف ما اثرت فاستعن
بقوة الغضب التي تثور وتهيج بالانفة والحمية واقهر بها
النفس البهيمية فان غلبتك مع ذلك ثم ندمت فانت ندمت(?)
في طريق الصلاح فتمم عزيمتك واحذر ان تعاود كالطمع
فيك والغلبة لك فان انت لم تفعل ذلك ولم تكن العقبى

في الغلبة لكن كنت كما قال الحكيم الاول اني ارى اكثر الناس
يدعون محبة الافعال الجميلة ثم لا يتحملون المؤونة فيها
على علمهم بفضلها فتغلبهم الترفه ومحبة البطالة فلا يكن
بينهم وبين من لا يحب الجميل فرق اذا لم يحتملوا مؤونة
الصبر ويصيروا الى تمام ما آثروه وعرفوا فضله واذكر
مثل البئر التي تردى فيها البصير والاعمى فيكونان في الهلكة
سواء الا ان الاعمى اعذر ومن وصل من هذه الاداب
الى مرتبة يعتمد واكتسب بها الفضائل التي عددناها
فقد وجب عليه تاديب غيره وافاضة ما اعطاه الله
على ابناء جنسه **فصل في تأديب الاحداث**
والصبيان خاصة نقلت اكثره من كتاب بروسن
قد قلنا فيما تقدم انه اول قوة تظهر في الانسان اول ما
يكون هي القوة التي تشتاق بها الى الغذاء الذي هو
سبب كونه حيا فيتحرك بالطبع الى اللبن ويلتمسه
من الثدي الذي هو معدنه من غير تعليم ولا توقيف ويحدث

له مع ذلك قوة على التماسه بالصوت الذي هو مادته
ودليله الذي يدل به على اللذة والاذى ثم يتربى فيه
هذه القوة ويتشوق بها ابدا الى الازدياد والتصرف
بها في انواع الشهوات ثم يحدث فيه قوة على التحرك
نحوها بالآلات التي يخلق له ثم يحدث له الشوق الى الافعال
التي تحصل له هذه ثم يحدث له من الحواس قوة على
تخيل الامور وترتسم في قوته الخيالية مثالات فيشتاق
اليها ثم يظهر فيه قوة الغضب التي تشتاق بها الى دفع
ما يؤذيه مقاومة ما يمنعه من منافعه فان اطاق
بنفسه ان ينتقم من مؤذياته انتقم منها والا
التمس معونة غيره وانتصر بوالديه بالتصويت والبكا
ثم يحدث له الشوق الى تميز الافعال الانسانية خاصة
اولا اولا حتى الى ان يصل الى كماله في هذا التميز فيسمى حينئذ
عاقلا وهذه القوى كثيرة وبعضها ضرورية في وجود
الاخرى الى ان ينتهي الى الغاية الاخيرة وهي التي لا تزداد

لغاية أخرى وهي الخير المطلق الذي يتشوقه الانسان
من حيث هو انسان واول ما يحدث فيه من هذه القوة
الحياء وهو الخوف من ظهور شيء قبيح منه ولذلك قلنا
ما ينبغي ان يتفرس في الصبي ويستدل به على عقله
الحياء فانه يدل على انه قد احس بالقبيح ومع احساسه
به هو يحذره ويتجنبه ويخاف ان يظهر فيه او منه فاذا
نظرت الى الصبي فوجدته مستحييا مطرقا بطرفه الى الارض
غير وقاح ولا محدق اليك فهو اول دليل نجابته والشاهد
لك على ان نفسه قد احست بالجميل والقبيح وان حياءه
هو انحصار نفسه خوفا من قبيح يظهر منه وهذا ليس بشيء
اكثر من ايثار الجميل والهرب من القبيح بالتمييز والعقل وهذه
النفس مستعدة للتأديب صالحة للعناية لا يجب ان تهمل
ولا يترك ومخالطة الاضداد الذين يفسدون بالمقارنة
والمداخلة من كان بهذه الحال من الاستعداد لقبول
الفضيلة فان نفس الصبي ساذجة لم تنتقش بعد بصورة

ولا لها

ولا لها رأي وعزيمة تميلها من شيء الى شيء فاذا نقشت
بصورة وقبلتها نشأ عليها واعتادها فالاولى بمثل
هذه النفس ان ينبه ابدا على حب الكرامة ولا سيما
ما يحصل له منها بالدين دون المال وبلزوم سننه
ووظائفه ثم بمدح الاخيار عنده ويمدح هو نفسه
اذا ظهر شيء جميل منه ويخوف من المذمة على ادنى قبح
يظهر منه ويؤاخذ بالاستهانة بالماكل والمشارب والملابس
الفاخرة ويزين عنده ظلف النفس والترفع على الحرص
في المطاعم خاصة وفي اللذات عامة ويحبب اليه
ايثار غيره على نفسه في الغذاء والاقتصار على الشيء
المعتدل والاقتصار في التماسها ويعلم ان اولى الناس
بالملابس الملونة والمنقوشة النساء اللاتي يتزين
للرجال ثم العبيد والخول وان الاحسن باهل النبل والسيادة
من اللباس البياض وما اشبهه حتى اذا تربى على
ذلك وسمعه من كل من يقرب منه ويكرر عليه ولم يترك

ومخالطة من يسمع منه ضد ما ذكرته لا سيما من اترابه
ومن كان في مثل سنه ممن يعاشره ويلاعبه وذكرت ان الصبي
في ابتدا نشوه يكون على الاكثر قبيح الافعال اما كلها واما اكثرها
فانه يكون كذوبا ويحكي ما لم يسمعه ولم يره ويكون حسودا
سروقا نموما لجوجا ذا فضول ومحك وكيادا اضر شي بنفسه
وبكل امر يلابسه ثم لا يزال به التاديب والسن والتجارب
حتى ينتقل في احوال بعد احوال فلذلك ينبغي ان يوخذ ما دام
طفلا بما ذكرناه ويذكره ثم يطالب بحفظ محاسن الاخبار
والاشعار التي تجري مجرى ما تعوده بالادب حتى يتاكد
عنده بروايتها وحفظها والمذاكرة بها جميع ما قدمناه
ويحذر النظر في الاشعار السخيفة من ذكر العشق واهله وما
يوهمه اصحابها انه ضرب من الظرف ورقة الطبع فان
هذا الباب مفسدة للاحداث جدا ثم يمدح بكل ما يظهر
منه من خلق جميل وفعل حسن ويكرم عليه فان خالف في
بعض الاوقات ما ذكرته فالاولى الا يوبخ عليه ولا يكاشف

بانه

بلغ

بانه اقدم عليه بل يتغافل عنه تغافل من لا يخطر بباله
انه تجاسر على مثله ولا هم به لا سيما ان ستره الصبي
واجتهد في ان يخفي ما فعله على الناس فان عاد فليوبخ
عليه سرا وليعظم عنده ما اتاه ويحذر من معاودته
فانك ان عودته التوبيخ والمكاشفة حملته على الوقاحة
وحرضته على معاودة ما كان استقبحه وهان
عليه الملامة في ركوب قبايح اللذات تدعو اليها
نفسه وهذه اللذات كثيرة جدا والذي ينبغي ان
يبدا به في تقويمها ادب المطاعم فيفهم اولا انها
انما تراد للصحة لا للذة وان الاغذية كلها انما خلقت
واعدت لنا لتصح بها ابداننا وتصير مادة لحيوتنا
فهي تجري مجرى الادوية تداوى بها الجوع والالم الحادث
منه فكما ان الدواء لا يراد للذة ولا يستكثر منه للشهوة
فكذلك الاطعمة لا ينبغي ان يتناول منها الا ما يحفظ صحة
البدن ويدفع الم الجوع ويمنع من المرض فيحقر عنده

صورة من يشره اليه وينال منه فوق حاجة بدنه او
ما لا يوافقه حتى يقتصر على لون واحد ولا يرغب
في الالوان الكثيرة فاذا جلس مع غيره لا يبادر الطعام
ولا يديم النظر الى الوانه ولا يحدق اليه شديدًا ويقتصر
على ما يليه ولا يسرع في الاكل ولا يوالي بين اللقم بسرعة
ولا يعظم اللقمة ولا يبتلعها حتى يجيد مضغها ولا يلطخ
يده ولا ثوبه ولا يلحظ من يواكله ولا يتبع بنظره
مواقع يده من الطعام ويعوّد ان يوثر غيره بما يليه
ان كان افضل عنده ثم يضبط شهوته حتى يقتصر على ادنى
الطعام وادونه وليأكل الخبز القفار الذي لا ادم معه
في بعض الاوقات وهذه الاداب وان كانت جميلة
بالفقراء فهي بالاغنياء اجمل وينبغي ان يقلل بالعشي فانه
اذا استوفاه بالنهار كسل واحتاج الى النوم وتبلد فهمه
مع ذلك وان منع اللحم في اكثر اوقاته كان نافعا له في الحركة
واليقظة وقلة البلادة وبعثه الى النشاط والخفة فاما

الحلوات

بلغ

الحلوات والفواكه فينبغي ان يمتنع منها البتة ان امكن
والا فليتناول اقل ما يمكن فانها يستحيل في بدنه ويعوده
ايضا الشره ومحبة الاستكثار من المآكل ويعود الا يشرب
في خلال طعامه الماء فاما النبيذ واصناف الاشربة المسكرة
فاياه واياها فانها تضره في بدنه وفي نفسه وتحمله على سرعة
الغضب والتهور والاقدام على القبايح وعلى الوقاحة وساير
الخصال المذمومة ولا ينبغي ان يحضر مجالس اهل النبيذ
الا ان يكون اهل المجلس ادباء فضلا فاما غيرهم فلا
لئلا يسمع الكلام القبيح والسخافات التي تجري فيه
وينبغي الا ياكل حتى يفرغ من وظايف الادب التي يتعلمها
ويتعب تعبا كافيا وينبغي ان يمنع من كل فعل يستره
ويخفيه فانه ليس يخفي شيئا الا وهو يظن او يعلم انه
قبيح ويمنع من النوم الكثير فانه يفتحه ويغلظ ذهنه
ويميت خواطره هذا بالليل فاما بالنهار فلا ينبغي
ان يتعوده البتة ويمنع ايضا من الفرش الوطي وجميع

قليلا

الفراش

انواع النزهة والتعب حتى يصلب بدنه ويتعود الخشونة
ولا يعود الجيش والاسراب في الصيف والا الاوبار والنيران
في الشتاء للاسباب التي ذكرها ويعود المشي والحركة والركوب والرياضة
حتى لا يتعود اضدادها ويعود الا يكشف اطرافه ولا يسرع
في مشيه ولا يرخي يديه بل يضمها الى صدره ولا يفرق
شعره ولا يتزين بملابس النساء ولا يلبس خاتما الا وقت
حاجته اليه ولا يفتخر على اقرانه بشيء مما يملكه والداه
ولا بشيء من مأكله وملابسه وما يجري مجراها بل يتواضع
لكل احد ويكرم كل من عاشره ولا يتوصل بشرف ان كان له
او سلطان من اهله ان اتفق الى غصب من هو دونه
او استهدى من لا يمكنه رده عن هواه او تطاول عليه
كمن اتفق له ان كان خاله وزيرا او عمه سلطانا فتطرق
الى هضيمة اقرانه وثلم اخوانه واستباحة اموال جيرانه
ومعارفه وينبغي ان يعود الا يتبزق في مجلسه ولا يتمخط
ولا يتثاوب بحضرة غيره ولا يضع رجلا على رجل ولا يضرب

تحت

تحت ذقنه بساعده ولا يعمد راسه بيده فان هذا
دليل الكسل وانه قد بلغ به التعب الى ان يحمل راسه
حتى يستعين بيده ويعود الا يكذب ولا يحلف
البتة لا صادقا ولا كاذبا فان هذا قبيح بالرجال مع
الحاجة اليه في بعض الاوقات فاما الصبي فلا حاجة
به الى اليمين ويعود ايضا الصمت وقلة الكلام و
الا يتكلم الا جوابا واذا حضر من هو اكبر منه اشتغل
بالاستماع منه والصمت له ويمنع من خبيث الكلام
وهجينه ومن السب واللعن ولغو الكلام ويعود حسن
الكلام وظريفه وجميل اللقاء وكريمه ولا يرخص له ان
يستمع اضدادها ويعود خدمة نفسه ومعلمه و من غيره
كل من كان اكبر منه واحوج الصبيان الى هذا الادب
اولاد الاغنياء والمترفون وينبغي اذا ضربه المعلم
الا يصرخ ولا يستشفع فان هذا فعل المماليك ومن هو

خوار ضعيف ولا يعين احدا الا بالقبيح والسوء من
الادب و يعود ان يبر الصبيان وان يكافيهم على
الجميل باكثر منه لئلا يتعوّد الربح على الصبيان وعلى
الصديق و يبغض اليه الفضة والذهب ويحذر منها
اكثر من تحذيره السباع والحيات والعقارب والافاعي
فان آفة حب الفضة والذهب اكثر آفة من السموم
وينبغي ان يوذن له في بعض الاوقات ان يلعب لعبا
جميلا يستريح اليه في تعب الادب ولا يكون في لعبه الم
ولا تعب شديد ويعود طاعة والديه ومعلميه ومؤدبيه
وان ينظر اليهم بعين الجلالة ويهابهم فهذه
الاداب النافعة للصبيان وهي للكبار من الناس
ايضا نافعة ولكنها للاحداث انفع لانها تعوّدهم
محبة الفضايل وينشأون عليها فلا تثقل عليهم
تجنب الرذايل ويسهل عليهم بعد ذلك جميع ما ترسمه

الحكمة من تحت الشريعة والسنة ويعتادون ضبط النفس
عما تدعوهم اليه من اللذات القبيحة وتكفهم عن الانهماك
في شيء منها او الفكر الكثير فيها وتسوقهم الى مرتبة الفلسفة
العالية وترقيهم الى معالي الامور التي وصفناها في اول الكتاب
من التقرب الى الله عز وجل ومجاورة الملايكة مع حسن الحال في
الدنيا وطيب العيش وجميل الاحدوثة وقلة الاعداء وكثرة
المداح والراغبين في مودته من الفضلا خاصة فاذا تجاوز
هذه الدرجة وبلغ اماما الى ان يفهم اغراض الناس و
يحرصون عليها من الثروة واقتناء الضياع والعبيد والخيل
والفرش واشباه ذلك انما هو ترفية البدن وحفظ
صحته وان يبقى على اعتدال مدة ما ولا يقع في الامراض
ولا تفجاه الميتة وان يتهنا بنعمة الله عليه ويتعد
لدار البقاء والحيات السرمدية وان اللذات البدنية
كلها بالحقيقة هي خلاص من آلام وراحات

وعواقب الامور فهم ان
الغرض الاخير من هذه الاشياء
التي تقصدها الناس ح

من تعب فاذا عرف ذلك وتحققه ثم تعوده بالسيرة الدايمة
من الرياضات تحرك الحرارة الغريزية وتحفظ الصحة و
تنفي الكسل وتطرد البلادة وتبعث النشاط وتذكي النفس فمن
كان ممولا مترفا كانت هذه الاشيا التي رسمتها اصعب
عليه لكثرة من يحتف به ويغويه ولموافقة طبيعة
الانسان في اول ما ينشا هذه اللذات واجماع جمهور الناس
على نيل ما امكنهم منها وطلب ما تعذر عليهم بغاية
جهدهم واما الفقرا فالامر اسهل عليهم بل هم قريبون
الى الفضايل قادرون عليها متمكنون من نيلها والا
صايرة منها وحال المتوسطين من الناس متوسطين
هاتين الحالتين وقد كان ملوك الفرس الفضلا لا
يرسلون اولادهم بين حشمهم وخواصهم خوفا عليهم يبليون
من الاحوال التي ذكرتها وكانوا ينفذونهم مع ثقاتهم
الى النواحي البعيدة منهم ومن سماع ما حذرت منهم منه

فكان

بلغ

فكان ينشؤون بين اهل الجفا وخشونة العيش ممن لا يعرف التنعم
ولا الترفه واخبارهم في ذلك مشهورة وكثير من روسا الديلم في
زماننا هذا ينقلون اولادهم عند ما ينشؤون الى بلادهم ليتعودوا بها
هذه الاخلاق ويبعدوا عن التنعم وعادات اهل البلدان الردية والاقاليم
هذه الحروف المحمودة في تاديب الاحداث فقد عرفت اضدادها اعني ان الطرف ح
من نشا على خلاف هذا المذهب التاديب لم يرج فلاحه ولا ينبغي ان
يشتغل بصلاحه وتقديمه فانه قد صار بمنزلة الخنزير الوحشي
الذي لا يطمع في رياضته فان نفسه العاقلة تصير خادمة لنفسه
البهيمية والنفس الغضبية فهي منهمكة في مطالبها من اللذات
والشهوات وكما لا سبيل الى رياضة سباع البهايم الوحشية التي
لا تقبل التاديب كذلك لا سبيل الى رياضة من نشا على هذه الطريقة
ولعله اذا امعن قليلا في السن الا انه لا يكون في جميع احواله
عالما بقبح سيرته ذاما لها عاتبا على نفسه على الاقلاع والانابة زمان
مثل هذا الانسان قد يرجى له النزوع من اخلاقه بالتدريج والرجوع النزوع ح

الى الطريقة المثلى بالتوبة وبمصاحبة الاخيار واهل الحكمة
وبالاكباب على التفلسف واذ قد ذكرنا الخلق المحمود وما ينبغي
ان يوخذ به الاحداث والصبيان فنحن واصفون جميع القوى التي
تحدث للحيوان اولا اولا الى ان ينتهي الى اقصى كمال الانسان
فانك شديد الحاجة الى معرفة ذلك لتبتدئ على الترتيب
الطبيعي في تقديم واحد واحد منها فنقول ان الاجسام الطبيعية
كلها تشترك في الحد الذي يعمها ثم تتفاضل في قبول الآثار الشريفة
والصور التي تحدث فيها فان الجماد منها اذا قبل صورة
مقبولة عند الناس صار بها افضل من الطينة الاولى
التي لا تقبل تلك الصورة فاذا بلغ الى ان تقبل
صورة النبات صار بزيادة هذه الصورة افضل
من الجماد وتلك الزيادة هي الاغتذاء والنمو والامتداد
في الاقطار واجتذاب ما يوافقه من الارض والماء وترك ما لا يوافقه
ونفض الفضول التي تتولد فيه من غذائه عن جسمه بالصمغ وهذه هي الاشياء

التي ينفصل بها النبات من الجماد وهي حال زائدة على الجسمية
التي حددناها وكانت حاصلة في الجماد وهذه الحال الزائدة
في النبات التي شرف على الجماد تتفاضل وذلك ان بعضها
يفارق الجماد مفارقة يسيرة كالمرجان واشباهه ثم يتدرج
فيها فيحصل له من هذه الزيادة شيء بعد شيء فبعضها
ينبت من غير بذر ولا يحفظ نوعه بالثمر والبذر ويكفيه
في حدوث امتزاج العناصر وهبوب الرياح وطلوع الشمس
فلذلك هو في افق الجمادات وقريب الحال منها ثم تزداد هذه
الفضيلة في النبات فيفضل بعضه على بعض بنظام
وترتيب حتى يظهر فيه قوة الاثمار وحفظ النوع بالبذر
الذي يخلف به مثله فتصير هذه الحال زائدة فيه ومميزة
له عن حال ما قبله ثم تقوى هذه الفضيلة فيه حتى يصير
فضل الثالث على الثاني كفضل الثاني على الاول ولا يزال يشرف
ويفضل بعضه على بعض حتى يبلغ الى افقه ويصير في افق
الحيوان وهي كرام الشجر كالزيتون والرمان والكرم واصناف

الفواكه الا انها بعد مختلطة القوى اعنى ان قوى ذكورها
واناثها غير متميزة فهى تحمل وتولد المثل ولم تبلغ غاية
افقها الذى يتصل بافق الحيوان ثم تزداد وتمعن فى هذا
الافق الى ان يصير فى افق الحيوان فلا يحتمل زيادة وذلك انها
ان قبلت زيادة يسيرة صارت حيوانا وخرجت عن افق النبات
فحينئذ يتميز قواها وتحصل فيها ذكورة واناث ويقبل من
فضايل الحيوان امورا تتميز بها عن ساير النبات والشجر كالنخل
الذى طالع افق الحيوان بالخواص العشر المذكورة فى مواضعها
ولم يبق بينه وبين الحيوان الا مرتبة واحدة وهى الانقلاع
من الارض والسعى الى الغذا وقد روى فى الخبر ما هو كالاشارة
او كالرمز الى هذا المعنى وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم اكرموا
عمتكم النخلة فانها خلقت من بقية طين آدم فاذا تحرك النبات
وانقلع من افقه وسعى الى غذايه ولم يتقيد فى موضعه
الى ان يصير اليه غذاوه وكونت له الالات اخر يتناول بها
حاجاته الى تكمله فقد صار حيوانا وهذه الالات يتزايد فى

الحيوان

الحيوان من اول افقه ويتفاضل فيه فيشرف بعضها على
بعض كما كان ذا النبات فلا يزال يقبل فضيلة بعد فضيلة
حتى يظهر قوة الشعور باللذة والاذى فيلتذ به بوصوله
الى منافعه ويتالم بوصول مضاره اليه ثم يقبل الهام الله
عز وجل اياه فيهتدى الى مصالحه ويطلبها والى اضدادها
فيهرب منها وما كان من الحيوان فى اول افق النبات المتزاوج
ولا يخلف المثل بل يتولد كالديدان والذبان واصناف الحشرات
الخسيسة ثم يتزايد فيها قبول الفضيلة كما كان ذلك فى النبات
سواء ثم يحدث فيه قوة الغضب التى ينهض بها الى دفع ما
يوذيها فيعطى من السلاح بحسب قوتها وما يطيق استعماله
فان كانت قوته الغضبية شديدة كان سلاحه قويا
تاما وان كانت ناقصة كان ناقصا وان كانت ضعيفة
جدا لم يعطه سلاحا البتة بل يعطى الة الحرب كشدة العدو
والقدرة على الحيل التى ينجيه من مخاوفه وانت ترى ذلك
عيانا من الحيوان الذى اعطى القرون التى تجرى له مجرى الرماح

والذى اعطى آلة الرمى التى تجري مجرى النبل والنشاب والذي
أعطي الانياب والمخاليب التي تجرى له مجرى السكاكين والخناجر
والذى اعطي الحوافر التي تجري له مجرى الدبوس والطبر فاما
ما لم يعط سلاحا لضعفه عن استعماله ولقلة شجاعته
ونقصان قوته الغضبية ولانه لو اعطيه لصار كلاً
عليه فقد اعطى آلة الهرب والحيل بجودة العدو والخفة
والحيل والمراوغة كالارنب والثعالب واشباههما
واذا تصفحت احوال الموجودات في السباع والوحش والطير
رايت هذه الحكمة مستمرة فيها فتبارك الله احسن الخالقين
فاما الانسان فقد عوض من هذه الالات كلها بان
هدي الى استعمالها كلها وسخرت هذه كلها وسنتكلم بلغ
في ذلك في موضعه فاما اسباب هذه الاشيا والشكوك
التى تعترض في قصد بعضها بالتلف وانواع الالم والاذى
فليس يليق بهذا الموضع وسنذكرها ان اخر الله في الاجل
عند بلوغنا الى الموضع الخاص به فنعود الى ذكر مراتب

الحيوان فنقول

الحيوان فنقول ان ما اهتدى منها الى الازدواج وطلب
النسل وحفظ الولد وتربيته والاشفاق عليه بالكن
والعش والكناس كما نشاهد فيما يلد ويبيض وتغذيته
اما باللبن واما بنقل الغذا اليه فانه افضل مما لا يهتدي
الى شيء منها ثم لا تزال هذه الاحوال تتزايد في الحيوان
حتى يقرب من افق الانسان فحينئذ يقبل التاديب
ويصير بقبوله للادب وافضليته يتميز بها من سائر الحيوانات
الاخر ثم تتزايد هذه الفضيلة في الحيوانات حتى تشرف
بها ضروب الشرف كالفرس المؤدب والبازي المعلم
ثم يصير من هذه المرتبة الى مرتبة الحيوان الذي يحاكي
الانسان من تلقاء نفسه ويتشبه به من غير تعليم كالقردة
وما اشبهها ويبلغ من ذكائها ان يكتفي في التاديب
بان ترى الانسان يعمل عملا مثله من غير ان يحوج الانسان
الى تعب بها ورياضة لها وهذه غاية افق الحيوان
التي ان تجاوزها وقبل زيادة يسيرة خرج بها عن افقه

وصار في افق الانسان الذي يقبل العقل والتميز والنطق
والالات التي يستعملها والصور التي يلايمها فاذا بلغ هذه
المرتبة تحرك الى المعارف واشتاق الى العلوم وحدثت له
قوى وملكات ومواهب من الله عز وجل يقتدر بها
على الترقي والامعان في هذه المرتبة كما كان ذلك في المراتب
الاخر التي ذكرناها واول هذه المراتب من الافق الانساني
المتصل باخر ذلك الافق الحيواني من مراتب الانسان الذين
يسكنون في اقاصي المعمورة من الشمال والجنوب كاواخر الترك
من بلاد ياجوج وماجوج واواخر الزنج واشباههم من
الامم التي لا يتميز عن القرود الا بمرتبة يسيرة ثم يتزايد فيهم
قوة التميز والفهم الى ان يصيروا الى اوسط الاقاليم فيحدث
فيهم الذكاء وسرعة وقبول الفضايل والى هذا الموضع
ينتهي فعل الطبيعة التي وكلها الله تعالى بالموجودات المحسوسة
ثم يستعد بهذا القبول لاكتساب الفضايل واقتنايها
بالارادة والسعي والاجتهاد الذي ذكرناه فيما تقدم حتى يصل

الى

بلغ

الى اخر افقه فاذا صار الى اخر افقه اتصل باول افق الملايكة
وهذه اعلى مرتبة الانسان وعندها يتاحد الموجودات
ويتصل اولها باخرها واخرها باولها وهو الذي يسمى دايرة
الوجود لان الدايرة التي قيل في حدها انها خط واحد
يبتدى بالحركة من نقطة وهي تنتهي اليها بعينها ودايرة
الوجود هي المتاحدة التي جعلت الكثرة وحدة وهي التي
تدل دلالة صادقة برهانية على وحدانية موجدها
وحكمته وقدرته وجوده تبارك اسمه وتعالى جده وتقدس
ذكره ولولا ان شرح هذا الموضع لا يليق بصناعة تهذيب
الاخلاق لشرحته وانت تقف عليه ان بلغت هذه
المرتبة بمشية الله واذا تصورت قدر ما اومانا لك
به وفهمته اطلعت على الحالة التي خلقت لها وندبت
اليها وعرفت الافق الذي يتصل بافقك وينقلك في مرتبة
بعد مرتبة وركوبك طبقا عن طبق وحدثت لك الايمان
الصحيح وشهدت ما غاب عن عينك من اثرها وبلغت

الى ان يتدرج الى العلوم الشريفة المكتوبة التي مبدأها
تعلّم المنطق فانه الالة في تقويم الفهم العقل الغريزي ثم
الوصول به الى معرفة الخلايق وطبايع عالم التعلق بها والتوسع
فيها والتوصّل منها الى العلوم الالهية وحينئذ تستعد
لقبول مواهب الله عز وجل وعطاياه ويأتيك الفيض الالهي
فتسكن عن قلق الطبيعة وحركاتها نحو الشهوانية الحيوانية
وتلحظ المراتب الذي (التي) ترقيت فيها اولاً اولاً من مراتب الموجودات
وعلمت ان كل مرتبة منها محتاجة الى ما قبلها في وجودها
وعلمت ان الانسان لا يتم له كماله الا بعد ان يحصل له
ما قبله وانه اذا حصل كاملاً وبلغ غايته افقه اشرف على
الافق الاعلى عليه وصار اماماً حكيماً تاماً تاتيه الالهامات
فيما يتصرف من المحاولات الحكمية والتأييدات العلوية
في التصورات العقلية فاما نبياً مؤيداً يأتيه الوحي
على ضروب المنازل التي يكون له عند الله ذكره فيصير حينئذ
واسطة بين الملاء الاعلى والملاء الاسفل وذلك يتصور

حال الموجودات كلها والحال التي ينتقل اليها الانسانية
ومطالعته الافاق التي ذكرناها وحينئذ يفهم عن الله عز وجل
قوله فلا تعلم نفس ما اخفي لهم من قرة اعين ويتصور معنى
قول رسول الله صلى الله عليه وسلم هناك ما لا عين رأت
ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر واذ ابلغ بنا الكلام
التي ذكر هذه المنزلة العالية الشريفة التي اهّل الانسان
لها ونسقنا احواله التي يترقى فيها وانه يكون اولاً بالشوق
الى المعارف والعلوم فينبغي ان نزيد في بيانه وشرحه
فنقول ان هذا الشوق ربما ساق الانسان على منهاج
قويم وقصد صحيح حتى يتادى الى الغاية كماله وهي سعادته
التامة وقلّما تتفق ذلك وربما اعوج به عن السمت
والسنن وذلك لاسباب كثيرة يطول ذكرها ولا حاجة
بك الى علمها الان وانت في تهذيب خلقك فكما الطبيعة
المدبرة للاجسام ربما شوقت الى ما ليس بتمام الجسم الطبيعي
لعلل تحدث وافات تطرأ عليه بمنزلة من يشتاق

يكمل

الى كل الطين وما جرى مجراه مما لا يوكل طبيعة الجسد بل
يهدمه ويفسده كذلك ايضا النفس الناطقة ربما اشتاقت
الى والتميز الذي لا يكمله ولا يشوقه نحو سعادته بل يحركه
الى الاشياء التي تعوقه وتقصر به عن كماله فحينئذ يحتاج
الى علاج نفساني روحاني كما احتاج في الحالة الاولى الى
طب طبيعي جسماني ولذلك تكثر حاجات الناس الى المقومين
والمثقفين والى المودبين والمسددين فان وجود تلك
الطبايع الفايقة التي تشتاق بذاتها من غير توقيف الى
السعادة عزيز الوجود لا توجد الا في الازمنة الطوال و
المدد البعيدة وهذا الادب الحق الذي يودبنا الى غايتنا
يجب ان يلحظ فيها المبداء الذي يجري مجرى الغاية

حتى اذا لحظت الغاية

تدرج منها الى الامور الطبيعية على طريق التحليل ثم يبتداء
من اسفل على طريق التركيب فيسلك فيها الى ان ينتهي
الى الغاية التي لحظت اولا وهذا المعنى هو الذي احوجنا
في مبداء هذا الكتاب وفي فصول اخر منه ان نذكر اشياء

عالية



عالية لا يليق بهذه الصناعة لتتشوق اليها من يستحقها
وليس يمكن الانسان ان يشتاق ما لا يعرفه البتة فاذا
لحظها من فيه قبول لها وعناية بها عرفها بعض المعرفة
فتشوقها وسعى نحوها واحتمل التعب والنصب وينبغي ان
تعلم ان كل انسان معد نحو فضيلة ما فهو اليها اقرب
وبالوصول اليها احرى ولذلك ما يصير سعادة الواحد من
الناس غير سعادة الاخر الا من اتفقت له نفس صافية
وطبيعة فايقة فينتهي الى غاية الامور والى غاية غاياتها
اعني السعادة القصوى التي لا سعادة بعدها ولاجل ذلك
يجب على مدبر المدن ان يسوق كل انسان نحو سعادته
التي تخصه ثم يقسم عنايته بالناس ونظره لهم بقسمين
احدهما في تسديد الناس وتقويمهم بالعلوم الفكرية والاخر
في تسديدهم نحو الصناعات والاعمال الحسية فاذا اسددهم
نحو السعادة الفكرية بداء بهم من الغاية الاخيرة على طريق
التحليل ووقف بهم عند القوى التي ذكرناها فاذا اسددهم



نحو السعادة العلية. بداء بهم من عند هذه القوى وانتهى
بهم الى تلك الغايات ولما كان غرضنا في هذا الكتاب السعادة
الخلقية وان يصدر عنا الافعال الجميلة كلها جميلة كما
رسمناه في صدر الكتاب وعملناه لمحبي الفلسفة خاصة
للعوام وكان النظر يتقدم العمل وجب ان نذكر الخير المطلق
والسعادة الانسانية ليلحظ الغاية الاخيرة ثم يطلب
بالافعال الارادية الذي ذكرنا جملها في المقالة الاولى وارسطوطاليس
انما بداء كتابه بهذا الموضع وافتتحه بذكر الخير المطلق
ليعرف ويتشوق ونحن نذكر ما قاله ونتبعه بما اخذناه
ايضا عنه في مواضع اخر لنجتمع ما فرقه ونضيف الى ذلك
ما اخذناه من مفسري كتبه والمتقبلين لحكمته بنحو
استطاعتنا والله الموفق والمويد فان الخيرات بيده
وهو حسبنا ونعم الوكيل وصلواته على النبي محمد وآله الطيبين
الطاهرين الاخيار الابرار تمت المقالة الثانية المقالة الثالثة
نبداء بمعونة الله تعالى في هذه المقالة بذكر الفرق بين

الخير

الخير والسعادة بعد ان نذكر الفاظ ارسطوطاليس
ليس اقتداء به وتوفية لحقه فنقول ان الخير على ما حد
واستحسنه من اراء المتقدمين هو المقصود من الكل
وهو الغاية الاخيرة وقد يسمى الشيء النافع في هذه الغاية
خيرا فاما السعادة فهي الخير بالاضافة الى صاحبها وهي
كمال له فسعادة اذا خير ما وقد يكون سعادة الانسان
غير سعادة الفرس وسعادة كل شيء في تمامه وكماله الذي
يخصه فاما الخير الذي يقصده الكل بالشوق فهو طبيعة
تقصد ولها ذات وهو الخير العام للناس من حيث هم
ناس فهم باجمعهم مشتركون فيها واما السعادة فهي
خير ما لواحد واحد من الناس فهي اذا بالاضافة وليس لها
ذات معينة وهي تختلف بالاضافة الى قاصديها فلذلك
يكون الخير المطلق غير مختلف فيه وقد يظن ان السعادة
تكون لغير الناطقين فان كان ذلك فانما هي استعدادات
فيها لقبول تماماتها وكمالاتها من غير قصد ولا روية ولا ارادة

فتلك الاستعدادات هي الشوق او ما يجري مجرى الشوق
من الناطقين بالارادة فاما ما يتاتى للحيوانات ومن ماكلها
ومشاربها وراحاتها فينبغي ان يسمى بختا او اتفاقا ولا تؤهل
لاسم السعادة كما يسمى في الانسان ايضا وانما استحق
ذلك الحد الذي ذكرناه للخير المطلق لان العقل لا يطلق
السعي والحركة لا الى نهاية وهذا اول في العقل ومثال ذلك
ان الصناعات والهمم والتدابير الاختيارية كلها
تقصد بها خير ما وما لم يقصد به خير ما فهو عبث فالعقل
يحظره ويمنع منه فبالواجب صار الخير المطلق هو المقصود
اليه من كل الناس وللروية ان يعلم ما هو وما الغاية
الاخيرة منه التي هي غاية الخيرات التي يرتقي الخيرات كلها
اليها حتى يجعل ذلك الخير غرضنا ونتوجه اليه اما تاديه
بعيدة واما تاديه قريبة ولا نغلط ايضا فيما ليس بخير
فنظنه خيرا ثم نفني اعمارنا في طلبه والتعب به وكل ستنبين
بمشية الله وعونه اقسام الخير الخير على ما قسمه ارسطوطاليس

والربعي بدل
ستبين بدل

وحكاه عنه

وحكاه عنه فرفوريوس وغيره هكذا قال الخيرات منها
ما هي شريفة ومنها ما هي ممدوحة ومنها ما هي بالقوة
كذلك ومنها ما هي نافعة فيها فالشريفة منها هي التي
شرفها من ذاتها وتجعل من اقتناها ايضا شريفا وهي
الحكمة والعقل والممدوحة مثل الفضايل والافعال الجميلة
الارادية والتي هي بالقوة هي مثل التهيؤ والاستعداد
لنيل الاشياء التي تقدمت والنافعة هي جميع الاشياء التي
تطلب لا لذاتها بل ليتوصل بها الى الخيرات وعلى جهة اخرى
الخيرات منها ما هي غايات ومنها ما ليست بغايات والغاية
منها ما هي تامة ومنها ما هي غير تامة فالتي هي تامة كالسعادة
وذلك انا اذا وصلنا اليها لم نحتج ان نستزيد اليها شيئا
اخر والتي هي غير تامة فكالصحة واليسار من قبل اذا وصلنا
اليهما احتجنا ان نستزيد فنقتني اشياء اخر واما التي
ليست بغايات البتة فبمنزلة العلاج والتعلم والرياضة
وعلى جهة اخرى الخيرات منها ما هو في النفس ومنها ما هو في البدن

فرفوريوس بدل
بغايات والغايات بدل

ومنها ما هو خارج عنها وعلى جهة اخرى الخيرات منها ما هو خير
على الاطلاق ومنها ما هو خير عند الضرورة والاتفاقات
التي يتفق لبعض في وقت دون وقت وايضا منها ما هو خير
لجميع الناس من جميع الوجوه وفي جميع الاوقات ومنها ما ليس
بجميع الانسان ولا من جميع الوجوه وعلى جهة اخرى الخير منها
ما هو في الجوهر ومنها ما هو في الكمية ومنها ما هو في الكيفية
وفي ساير المقولات فمنها كالقوي والملكات ومنها كالاحوال
ومنها كالافعال ومنها كالغايات ومنها كالمواد ومنها كالالات
وعلى جهة اخرى الخير منها معقولات ومنها محسوسات وجود
الخير في المعقولات كلها على هذا المثال اما في الجوهر فالله تعالى
وتقدس هو الخير الاول فان جميع الاشيا يتحرك نحوه بالشوق
اليه ولان تنال الخيرات الالهية بمدة السرمدية والبقاء والتمام
واما في الكمية والعدد المعتدل والمقدار المعتدل واما في
الكيفية فكاللذات واما في الاضافة فكالصدقات او
الرياسات واما في الاين ومتى فكالمكان المعتدل والزمان

الانيق

الانيق المبهج واما في الوضع كالقعود والاضطجاع والاتكا
الموافق واما في الملكة فكالاموال والمنافع واما في الانفعال
فكالسماع الطيب وساير المحسوسات الموثرة واما في الفعل
فمثل نفاذ الامر ورواج الفعل فاما السعادة فقد قلنا انها خير ما
وهي تمام الخيرات وغايتها والتمام هو الذي اذا بلغنا
اليه لم نحتج معه الى شيء اخر فلذلك نقول ان السعادة
هي افضل الخيرات ولكنا نحتاج في هذا التمام الذي
هو الغاية القصوى الى سعادة اخر وهي التي في البدن
والتي خارج البدن وارسطوطاليس يقول انه يعسر
على الانسان ان يفعل الافعال الشريفة بلا مادة مثل اتساع
اليد وكثرة الاصدقاء وجودة البخت ولهذا قال ما احتاجت
الحكمة الى صناعة الملك في اظهار شرفها ولهذا قلنا ان كان
شي عطية من الله تعالى وموهبة منه عز اسمه في اشرف
منازل الخيرات وفي اعلى مراتبها وهي خاصة بالانسان التام
ولذلك لا يشاركه فيها من ليس بتمام كالصبيان ومن جرى

مجراهم فهذه اقسام الخيرات فاما اقسام السعادات
على مذهب هذا الحكيم فهي خمسة اقسام احدها في صحة
البدن ولطف الحواس وذلك من اعتدال المزاج اعني ان يكون
جيد السمع والبصر والشم والذوق واللمس والثاني
في الثروة والاعوان واشباههما حتى يتسع لان يضع
المال في موضعه ويعمل به ساير الخيرات ويواسي منه
اهل الخير خاصة والمستحقين عامة ويعمل به كل ما يريد في
فضايله ويستحق الثناء والمدح عليه والثالث ان تحسن
احدوثته في الناس وينتشر ذكره بين اهل الفضل فيكون
ممدوحا بينهم يكثرون الثناء عليه لما يتصرف فيه من
الاحسان والمعروف والرابع ان يكون منجحا في الامور
وذلك اذا استتم ما روى فيه وعزم عليه حتى يصير الى
ما يامله منه والخامس ان يكون جيد الراي صحيح الفكر
سليم الاعتقادات في دينه وغير دينه بريا من الخطاء
والزلل جيد المشورة في الاراء فمن اجتمعت له هذه الاقسام

كلها

كلها فهو السعيد الكامل على مذهب هذا الرجل الفاضل
ومن حصل له بعضها كان حظه من السعادة بحسب ذلك
واما الحكماء الذين قبل هذا الرجل مثل فيثاغورس وبقراط
وافلاطن واشباههم فانهم اجمعوا على ان الفضايل كلها
في النفس وحدها ولذلك لما قسموا السعادة جعلوها كلها
في قوى النفس التي ذكرناها في اول الكتاب وهي الحكمة والشجاعة
والعفة والعدالة واجمعوا على ان هذه الفضايل هي
كافية في السعادة ولا يحتاج معها الى غيرها من فضايل
البدن ولا ما هو خارج البدن وان الانسان اذا حصل
تلك الفضايل لم يضره في سعادته ان يكون سقيما ناقص
الاعضاء مبتلى بجميع امراض البدن اللهم الا ان يلحق
النفس منها مضرة في خاص افعالها مثل فساد العقل ورداءة
الذهن وما اشبههما فاما الفقر والخمول وسقوط الجاه
وساير الاشياء الخارجة عنا فليست عندهم بقادحة
في السعادة البتة فاما الراقيون وجماعة من الطبيعيين

جعلوا البدن جزءاً من الانسان ولم يجعلوه آلةً كما
شرحناه فيما تقدم فلذلك اضطروا الى ان يجعلوا السعادة
التي في النفس غير كاملة اذا لم يقترن بها سعادة البدن
وما هو خارج البدن ايضا اعني الاشياء التي يكون بالبخت
والجد والمحققون من الفلاسفة يحقرون امر البخت
وكل ما يكون معه ولا يؤهلون تلك الاشياء لاسم السعادة
لان السعادة شيء ثابت غير زايل ولا متغير وهي اشرف الامور
واكرمها وارفعها فلا يجعلون لاخس الاشياء وهو الذي
يتغير ولا يثبت ولا يتحصل بروية ولا فكر ولا يتلقى
له بعقل وفضيلة فيها نصيبا ولهذا النظر اختلف القدماء
في السعادة العظمى فظن قوم انها لا تحصل للانسان الا
بعد مفارقته البدن والطبيعات كلها وهؤلاء
هم القوم الذين حكينا عنهم ان السعادة العظمى هي في النفس
وحدها وسموا الانسان ذلك الجوهر وحده دون البدن
ولذلك حكموا انها ما دامت متصلة بالطبيعة وكدرها

ونجاسات

ونجاسات البدن وضروراته وحاجات الانسان اليه
وافتقاراته الى الاشياء الكثيرة فليست سعيدة بالاطلاق
وايضا لما راوها لا تكمل الوجود الاشياء العقلية لانها
تستتر عنها بظلمة الهيولى اعني قصورها ونقصانها
ظنوا انها اذا فارقت هذه الكدورة فارقت الجهالات
وصفت وخلصت وقبلت الاضاءة والنور الالهي
اعني العقل التام ويجب على راي هؤلاء ان يكون الانسان
لا يسعد السعادة التامة الا في الاخرة بعد موته واما
الفرقة الاخرى فانها قالت انه من القبيح الشنيع ان يظن
ان الانسان ما دام حيا يعمل الاعمال الصالحة ويعتقد
الاراء الصحيحة ويسعى في تحصيل الفضائل كلها لنفسه
اولا ثم لابناء جنسه ويخلف رب العزة تقدس ذكره
في خلقه بهذه الافعال المرضية فهو شقي ناقص حتى اذا
مات وعدم هذه الاشياء صار سعيدا تام السعادة
وارسطوطاليس يتحقق بهذا الراي وذلك انه تكلم في

السعادة الانسانية والانسان هو المركب عنده من بدن
ونفس ولذلك حد الانسان بالناطق المايت وبالناطق
الماشي برجلين المنتصب القامة وما اشبه ذلك وهذه الفرقة
وهي التي رئيسها ارسطوطاليس رات ان السعادة الانسانية
تحصل للانسان في الدنيا اذا سعى لها وتعب بها حتى يصير
الى اقصاها ولما راى الحكيم ذلك وان الناس مختلفون
في هذه السعادة الانسانية وانها قد اشكلت عليهم
اشكالا شديدا احتاج ان تبعث في الابانة عنها واطالة
الكلام فيها وذلك ان الفقير يرى ان السعادة العظمى
في الثروة واليسار والمريض انها في الصحة والسلامة
والذليل انها في الجاه والسلطان والخليع يرى انها
في التمكن من الشهوات كلها على اختلافها والعاشق يرى
في الظفر بالمعشوق والفاضل انها في افاضة المعروف
والفيلسوف يرى ان هذه كلها اذا كانت مرتبة
بحسب تقسيط العقل اعني عند الحاجة وفي الوقت الذي

وكما يجب

وكما يجب وعند من يجب فهي سعادات كلها وما كان
منها يراد لشيء اخر فبذلك الشيء احق وباسم السعادة ولما كان
كل واحد من هاتين الفرقتين نظرت نظرا ما وجب ان يعول
في ذلك ما نراه صوابا وجامعا للرايين فنقول ان الانسان
ذو فضيلة روحانية يناسب بها الارواح الطيبة
التي يسمى ملايكة وذو فضيلة جسمانية يناسب بها الانعام
لانه مركب منهما فهو بالجزء الجسماني الذي يناسب به الانعام
مقيم في هذا العالم السفلي مدة قصيرة ليعمره وينظمه ويزينه
حتى اذا ظفر بهذه المرتبة على الكمال انتقل الى العالم العلوي
واقام فيه دايما سرمدا في صحبة الملايكة والارواح الطيبة
وينبغي ان يفهم من قولنا العالم السفلي والعالم العلوي
ما ذكرناه فيما تقدم فانا قد قلنا هناك انا لسنا نعني بالعلوي
المكان الاعلى في الحس ولا بالعالم السفلي المكان الاسفل في
الحس بل كل محسوس فهو اسفل وان كان محسوسا في المكان
الاعلى وكل معقول فهو اعلى وان كان معقولا في المكان الاسفل

وينبغي ان يعلم انه ليس يحتاج في صحبة الارواح الطيبة
المستغنية عن الابدان الى شيء من السعادات البدنية
التي ذكرناها سوى سعادة النفس فقط اعني المعقولات
الابدية التي هي بالحقيقة الحكمة فقط فاذاً ما دام الانسان
انسانا فليس يتم له السعادة الا بتحصيل الحالين جميعا وليس
يحصلان على التمام الا بالاشياء النافعة في الوصول الى الحكمة
الابدية فالسعيد اذاً من الناس في احدى مرتبتين
اما في رتبة الاشياء الجسمانية متعلقا باحوالها السفلى
سعيدا بها وهو مع ذلك يطالع الامور الشريفة باحثا عنها
مشتاقا اليها متحركا نحوها مغتبطا بها واما ان يكون في
رتبة الاشياء الروحانية متعلقا باحوالها العليا سعيدا
بها وهو مع ذلك يطالع الامور الدنية معتبرا بها
ناظرا في علامات القدرة الالهية ودلايل الحكمة البالغة
مقتديا بها ناظما لها مفيضا للخيرات عليها سايقا
لها نحو الافضل فالافضل بحسب قبولها وعلى نحو استطاعتها

راى امرءٍ لم يحصل في احدى هاتين المنزلتين فهو لاء
رتبة الانعام بل هو اضل وانما صار اضل لان تلك غير معرضة
لهذه الخيرات ولا اعطيت استطاعة يتحرك بها نحو هذه
المراتب العالية وانما يتحرك بقواها نحو كمالاتها الخاصة
بها والانسان معرض لها مندوب اليها مُزاح العلة فيها
وهو مع ذلك غير محصل لها ولا ساعٍ نحوها لكنه موثر لضدها
مستعمل قواها الشريفة في الامور الدنية وتلك محصلة
لكمالاتها التي تخصها فاذاً الانعام اذا منعت الخيرات الانسية
وحرمت جوار الارواح الطيبة ودخول الجنة التي وُعِد
المتقون فهي معذورة والانسان غير معذور بل مثل الاول
مثل الاعمى اذا جاز عن الطريق فتردى في بئر فهو مرحوم غير
ملوم ومثل الثاني مثل بصير يجوز على بصيرة حتى يتردى في
البئر فهو ملوم غير مرحوم واذ قد تبين ان السعيد لا محالة
في احدى المرتبتين اللتين ذكرناهما فقد تبين ايضا
ان احدهما ناقص مقصر عن الآخر وان الانقص منهما ليس يخلو

التي هي

ولا يتعرى من الالام والحسرات لاجل الخدع الطبيعية
والزخارف الحسية يعترضه فيما يلابسه وتعوقه عما يلائمه حظه
ويمنعه من الترقي فيها على ما ينبغي ويشغله بما يتعلق به من
الامور الجسمانية فصاحب هذه الرتبة غير كامل على الاطلاق
ولا سعيد تام وان صاحب الرتبة الاخرى هو السعيد
التام وهو الذي توفر حظه من الحكمة فهو مقيم بروحانيته
بين الملاء الاعلى يستمد منهم لطايف الحكمة ويستنير بالنور
الالهي ويستزيد من فضايله بحسب عنايته بها وقلة عوايقه
ولذلك يكون ابدا خاليا من الالام والحسرات التي لا تخلو
صاحب الرتبة الاولى منهما ويكون مسرورا ابدا بذاته مغتبطا
بحالة وبما يحصل له دايما من فيض نور الاول فليس يسر الا بتلك
اللذات ولا يغتبط الا بتلك المحاسن ولا يهش الا لاظهار
تلك الحكمة بين اهلها ولا يرتاح الا لمن ناسبه وقاربه او احب
الاقتباس منه وهذه هي المرتبة التي من وصل اليها فقد وصل
آخر السعادات واقصاها وهو الذي لا يبالي بفراق الاحباب
من اهل الدنيا

من اهل الدنيا ولا يتحسر على ما يفوته من التنعم فيها وهو
الذي يرى جسمه وماله وجميع خيرات الدنيا التي عددناها
في السعادات التي في بدنه والخارجة عنها كلها كلا عليه
الا في ضرورات يحتاج اليها البدنه الذي هو مربوطه به
لا يستطيع الاخلال عنه الا عند مشية خالقه وهو الذي
وهو الذي يشتاق الى صحبة الكاله وملاقاه من يناسبه
من الارواح الطيبة والملائكة المقربين وهو الذي لا يفعل
الا ما اراده الله منه ولا يختار الا ما قربه اليه ولا يخالفه
لا بشي من الشهوات الرديه ولا ينخدع بخداع الطبيعة
ولا يلتفت الى شي يعوقه عن سعادته وهو الذي لا يحزن
على فقد محبوب ولا يتحسر على فوت مطلوب الا ان هذه
الرتبة الاخيرة يتفاوت الناس فيها تفاوتا عظيما اعني
من وصل اليها من الناس يكونون على طبقات كثيرة غير
متقاربة وهاتان المرتبتان هما اللتان ساق الحكيم الكلام
اليها واختار المرتبة الاخيرة منهما وذلك في كتابه المسمى

فضايل النفس وانا اورد الفاظه التي نقلت الى العربية
بعينها قال اول رتب الفضايل التي تسمى سعادة ان يصرف
الانسان ارادته ومحاولاته الى مصالحه في العالم المحسوس
والامور المحسوسة من امور النفس والبدن وما كان من الاحوال
متصلا بذلك ومشاركا له من الامور النفسانية ويكون
تصرفه في الاحوال المحسوسة تصرفا لا يحتاج به عن الاعتدال
الملايم لاحوال الحسنة وهذه حال قد تلبس فيها الانسان
بالاهواء والشهوات الا ان ذلك بقدر معتدل غير مفرط وهو
الى ما ينبغي اقرب منه الى ما ينبغي وذلك انه يجري امره نحو صواب
التدبير المتوسط في الفضيلة وما لا يخرج به عن تقدير الفكر
وان لابس الامور المحسوسة ويصرف فيها ثم الرتبة الثانية
وهي التي يصرف الانسان فيها ارادته ومحاولاته الى الامر الافضل
من صلاح امر النفس والبدن من غير ان يتلبس مع ذلك
بشيء من الاهواء والشهوات ولا يكترث بشيء من القنيات
المحسوسة الا بما تدعوه اليه الضرورة ثم يتزايد رتبة الانسان

في هذا

في هذا الضرب من الفضيلة وذلك ان الاماكن والرتب
في هذا الضرب من الفضايل كثيرة بعضها فوق بعض وبسبب
ذلك اما اولا فباختلاف طبايع الناس وثانيا على حسب العادات
وثالثا بحسب منازل الناس ومواضعهم من العلم والمعرفة
والفهم ورابعا بحسب هممهم وخامسا بحسب شوقهم ومعاناتهم
ويقال ايضا بحسب حدودهم ثم يكون النقلة من اخر هذه
المرتبة اعني هذا الصنف من الفضيلة الى الفضيلة الالهية
المحضة وهي لا يكون فيها تشوق الى آت ولا تلفت الى
نحو ماض ولا تشنيع حال ولا تطلع الى ناء ولا ضن بقريب
ولا خوف ولا فزع من حال ولا شغف بها ولا طلب لحظ
من حظوظ الانسانية ولا من حظوظ النفسانية ايضا
ولا بما تدعو الضرورة اليه من حاجة البدن والقوى الطبيعية
ولا القوى النفسانية لكن يتصرف بتصرف الجزء العقلي في اعالي
رتب الفضايل وهو صرف الوكد الى الامور الالهية ومعاناتها
ومحاولاتها بلا طلب عوض اعني ان يكون تصرفه فيها ومعاناته

ومحاولته لها لنفس ذاتها فقط وهذه الرتبة ايضا تتزايد
بالناس بحسب الهمم والشوق وفضل المعاناة والمحاولة وقوة
النجدة وصحة الثقة وبحسب منزلة من بلغ الى هذا المبلغ
من الفضيلة في هذه الاحوال التي عددناها الان يكون
تشبهه بالعلة الاولى واقتداؤه بها وبافعالها واخر المراتب
في الفضيلة ان يكون افعال الانسان كلها افعالا الهية
وهذه الافعال هي خير محض والفعل اذا كان خيرا محضا فليس
يفعله فاعله من اجل شيء اخر غير الفعل نفسه وذلك ان الخير
المحض هو غاية متوخاة لذاتها اي هو الامر المطلوب
المقصود لذاته والامر الذي هو غاية ولا سيما غاية
في نهاية النفاسة ليس يكون من اجل شيء آخر فافعال
الانسان اذا صارت كلها الهية فهي كلها انما يصدر
عن لبابه وذاته الحقيقية التي هي عقله الالهي الذي
هو ذاته بالحقيقة ويزول وينهدر ويموت ساير دواعي
طباعه البدني بساير عوارض النفسين البهيميين وعوارض
التخيل

التخيل المتولد عنها وعن دواعي نفسه الحسية فلا يبقى له
ح ارادة ولا همة خارجة عن فعله من اجلها يفعل ما يفعل
لكنه يتصرف في فعله بلا ارادة وهمة في سواه اي لا يكون
غرضه في فعل غير ذات الفعل وهذا هو سبيل الفعل الالهي
فهذه الحال هي اخر رتب الفضايل التي تتقبل فيها الانسان
المبداء الاول خالق الكل عز وجل اعني ان يكون فيما يفعله
لا يطلب به حظا ولا مجازاة ولا عوضا ولا زيادة لكن
يكون فعله بعينه وهو غرضه اي ليس يفعل من اجل شيء
غير ذات الفعل وغير ذاته هو ان لا يفعل ما يفعله من اجل
شيء غير فعله نفسه وذاته نفسها وذاته نفسها هي العقل
الاول الالهي نفسه وهكذا يفعل الباري تعالى لذاته لا من اجل
شيء اخر خارج عنه وذلك ان فعل الانسان في هذه الحال
يكون كما قلنا خيرا محضا وحكمة محضة فيبداء بالفعل
لنفس اظهار الفعل فقط لا لغاية اخرى يتوخاها بالفعل
وهكذا فعل الله عز وجل الخاص به ليس هو على القصد الاول

من اجل شي خارج عن ذاته اعني ليس لاجل سياسة الاشياء
التي نحن بعضها لانه لو كان ذلك لكانت افعاله انما كانت
يكون وتتم بمشاركة الامور التي من خارج ولتدبيرها
وتدبير احوالها وباهتمامه بها وعلى هذا يكون الاشياء التي
هي خارج اسبابا وعللا لافعاله وهذا شنيع قبيح قد تعالى الله
عنه علوا كبيرا لكن عنايته عز وجل بالاشياء التي من خارج
وفعله الذي يدبرها به ويرفدها انما هو على القصد الثاني
وليس يفعله من الاشياء انفسها من اجل ذاته ايضا وذلك
لاجل ان ذاته تفضل لذاتها لا من اجل المفضل عليه ولا من اجل
شي آخر وهكذا سبيل الانسان اذا بلغ الى الغاية القصوى
في الامكان من الاقتداء بالباري عز وجل يكون افعالها
التي يفعلها على القصد الاول من اجل ذاته نفسها التي
هي العقل الالهي ومن اجل الفعل نفسه وان فعل فعلا يرفد
به غيره وينفعه به فليس فعله له على القصد الاول من اجل ذلك
الغير لكن يفعل بذلك الغير ما يفعله به بقصد ثان وفعله ذلك

من اجل

من اجل ذاته بالقصد الاول ومن اجل الفعل نفسه اي النفس
الفضيلة ولنفس الخير لان فعله ذلك فضيلة وخير فيفعل ذلك
لنفس الفعل لا لاجتلاب منفعة ولا لدفع مضرة ولا للتباهي
وطلب الرياسة ومحبة الكرامة فهذا هو غرض الفلسفة
ومنتهى السعادة الا ان الانسان لا يصل الى هذه الحال حتى
تفنى ارادته كلها التي بحسب الامور الخارجة وتفنى العوارض
النفسانية وتموت خواطره التي يكون عن العوارض وتمتلي
شعاره الهيا وهمته الهية وانما يمتلي من ذلك اذ اصفا من
الامر الطبيعي البتة وبقي منه بقاء كاملا ثم ح تمتلي معرفة
الهية وشوقا الهيا ويوقن بالامور الالهية بما يتقرر
في نفس ذاته التي هي العقل كما تقررت فيه القضايا الاول
التي يسمى العلوم الاوايل العقلية الا ان تصور العقل ورويته
في هذه الحال الامور الالهية وثقته لها بمعنى اشرف والطف
واظهر واشد انكشافا له وبيانا من القضايا الاول التي تسمى
العلوم الاوايل العقلية فهذه الفاظ هذا الحكيم قد نقلتها

نقلا صحيحا وهي نقل ابي عثمان الدمشقي وهذا الرجل فصيح باللغتين
جميعا اعني اليونانية والعربية مرضي النقل عند جميع من
طالع هاتين اللغتين وهو مع ذلك شديد التحري لايراد
الالفاظ اليونانية ومعانيهم في الفاظ العرب ومعانيها
حتى لا يختلف في لفظ ولا معنى ومن رجع الى هذا الكتاب
اعني المسمى بفضايل النفس قرا هذه الالفاظ كما نقلتها
وليس يحصل هذه المراتب التي يترقى فيها صاحب السعادة
التامة الا بعد ان يعلم اجزاء الحكمة كلها علما صحيحا ويستوفيها
اولا اولا كما رتبناها في كتابنا المسمى ترتيب السعادة ومن ظن
من الناس انه يصل اليها بغير تلك الطريقة وعلى غير ذلك المنهاج
فقد ظن باطلا وبعد عن الحق بعدا كثيرا وليتذكر في هذا
الموضع الخطاء العظيم الذي وقع فيه قوم ظنوا انهم يدركون
الفضيلة بتعطيل القوة العاملة واهمالها بترك النظر الخاص
بالعقل والتقايهم باعمال ليست مدنية ولا بحسب ما يقسطه
التميز والعقل ولذلك رتبنا هذا الكتاب ليلحظ منها السعادة
الاخرة

الاخرة المطلوبة بالحكمة البالغة وتهذب لها النفس
وتصفيا لقبولها باستمرة غسولا وتنقية من الامور الطبيعية
وشهوات الابدان ولذلك تسميته بكتاب الطهارة وقال
ارسطوطاليس في كتابه المسمى بالاخلاق ان هذا الكتاب
لا ينتفع به الاحداث كثير منفعة ولا من هو في طبيعة
الاحداث قال ولست اعني بالحدث ههنا حدث
السن لان الزمان لا تاثير له في هذا المعنى وانما اعني
السيرة التي يقصدها اصل الشهوات واللذات الحسية
فاما اني اقول ما ذكرت هذه المرتبة الاخيرة من السعادة
طمعا في وصول الاحداث اليها بل ليتم على سمعهم فقط
وليعلم ان ههنا مرتبة حكمية لا يصل اليها الا اهلها
الاعلون مرتبة حسب فليلتمس كل من نظر في هذا الكتاب
المرتبة الاولى منها بالاخلاق التي وصفتها فان وقف
بعد ذلك واعانه الشوق الشديد والحرص التام وساير
ما ذكرناه وحكيناه عن الحكيم فليترق في درج الحكمة وليتصاعد

فيها بجهده قال الله عز وجل بعينه وبوفقه فاذا بلغ الانسان
الى غاية هذه السعادة ثم فارق بجسمه الكثيف دنياه
الدنية وتجرد بنفسه اللطيفة التي عني بتطهيرها
وغسلوا تها من الادناس الطبيعية لاجزاءه العلية
فقد فاز واعد ذاته للقاء خالقه عز وجل اعدادا
روحانيا ليس فيه نزاع الى تلك القوى التي كانت تعوقه
عن سعادته ولا شوق اليها لانه قد تطهر منها
وتنزه عنها ولم يبق فيه ارادة لها ولا حرص عليها
وقد استصلحها لجوار رب العالمين ولقبول كراماته
وفيض نوره الذي كان غير مستعد له ولا فيه قبول من
عطاياه وباتيه ح الشيء الذي وعد به المتقون
والابرار مما سبق الايما اليه مرارا في قوله عز وجل فلا تعلم
نفس ما اخفي لهم من قرة اعين وفي قول النبي صلى الله عليه والكرم
هنالك ما لا عين رات ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر
واذ قد لخصنا امر هاتين المنزلتين من السعادة القصوى

فقد

فقد تبين بيانا كافيا ان احديهما بالاضافة الينا اولى
والاخرى ثانية ومن المحال ان نتشكل الى الثانية من غير
ان نمر بالاولى فقد وجب ان نعود الى ما بدانا به من ذكر
الرتبة الاولى من السعادة ونستوفي الكلام فيها وفي الاخلاق
التي بنينا الكتاب عليها ونخلي عن بيان الرتبة الثانية
الى وقت اخر ونقول ان من عني ببعض القوى التي ذكرناها
دون بعض او تعمد لاصلاحها في وقت دون وقت
لم تحصل له السعادة وكذلك يكون حال الرجل في تدبير منزله
اذا عني ببعض اجزائه دون بعض او في وقت دون وقت
فانه لا يكون مدبر منزل وكذلك حال مدبر المدينة اذا
خص بنظره طائفة دون طائفة او وقتا دون وقت
لم يستحق اسم الرياسة على الاطلاق وارسطوطاليس
ليس يمثل بان يقال ان الخطاف الواحد اذا ظهر لا يدل على طبيعة
الربيع ولا يوم واحد معتدل الهوى يبشر بالربيع فسبيل
طالب السعادة ان يطلب السيرة اللذيذة عنده فيثير بها دايما

فان تلك السيرة هي واحدة ولذيذة في نفسها فلذلك قلنا
انه ينبغي ان يتشوقها دايما ويثبت عليها ابدا ولما كانت
السير ثلثا لانها ينقسم بانقسام الغايات الثلث التي يقصدها
الناس اعني سيرة اللذة وسيرة الكرامة وسيرة الحكمة وكانت
سيرة الحكمة اشرفها واتمها وكانت فضايل النفس كثيرة وجب
ان يفضل الانسان بافعلها ويشرف باشرفها فسيرة
الافاضل السعداء سيرة لذيذة بنفسها لان افعالهم ابدا
مختارة وممدوحة وكل انسان يلتذ بما هو محبوب عنده
فيلتذ بالعدل العادل ويلتذ بالحكمة الحكيم فالافعال الفاضلة ١٠
والغايات التي ينتهي اليها بالفضايل لذيذة محبوبة فالسعادة
الذ من كل شيء وارسطوطاليس يقول ان السعادة الالهية
وان كانت كما ذكرناها من الشرف وسيرتها الذ واجود من كل
سيرة فانها محتاجة الى السعادات الاخر الخارجة لان تظهر بها
والا كانت كامنة غير ظاهرة واذا كانت لذلك كان صاحبها
كالفاضل النايم الذي لا يظهر فعله وح لا يكون بينه وبين

غيره فرق كما وصفنا من حالها فيما تقدم فالمطلع اذا
على حقيقة هذه السعادة المتمكن من اظهار فعله بها هو الذي
يلتذ بها وهو الذي يسر سرورا حقيقيا غير مموه ولا مزخرف
بالاباطيل وهو الذي يخرج من حد المعرفة الى العشق والهيمان
وح يانف ان يصير سلطانه العالي تحت سلطان بطنه
وفرجه فلا يتخذ باشرف جزو منه اخس جزو فيه واعني
بالسرور المزخرف بالاباطيل اللذات يشركنا فيها الحيوانات
التي ليست بناطقة فان تلك لذات حسية تتصرم وشيكا
وتمله الحواس سريعا فاذا دامت عليها صارت كريهة وربما
عادت مولمة وكما ان للحس لذة فكذلك للعقل لذة
على حدة الا ان لذة العقل لذة ذاتية ولذة الحس لذة
عرضية فمن يعرف اللذة الحقيقية كيف يلتذ بها ومن
لا يعرف الرياسة الذاتية كيف يصبوا اليها فلذلك قدمنا
وصفها وشوقنا اليها باعادة الكلام فيها مرارا وقلنا
ان من لا يعرف الخير المطلق والفضيلة التامة ولا يعرف الحكمة

العملية اعنى ايثار الافضل والعمل به والثبات عليه لا ينشط له
ولا يرتاح اليه ومن كان كذلك فكيف يلتذ او يتنعم
بما شرحناه ودللنا عليه وكان الحكماء المتقدمين مثل
المتقدمين يضربونه ويكتبونه في الهياكل وهي مساجدهم
ومصلاهم وهذا هو الملك الموكل بالدنيا يقول ان ههنا
خيرا وههنا شرا وههنا ما ليس بخير ولا شر فمن عرف هذه
الثلثة حق معرفتها تخلص مني ونجا سالما ومن لا يعرفها
قتلته شر قتلة وذلك اني لا اقتله قتلا وحيا يستريح
به مني ولكني اقتله اولا في زمان طويل فهذا المثل من
نظر فيه وتامل عرف منه جميع ما قدمنا ذكره وينبغي
ان تعلم ان السعيد الذي ذكرنا حاله ما دام حيا تحت
هذا الفلك الداير بكواكبه ودرجاته ومطالع سعوده
ونحوسه سيرد عليه من البليات والنوايب وانواع
المحن والمصايب ما يرد على غيره الا انه لا يتذمر منها و
لا يلحقه ما يلحق غيره من المشقة في احتمالها لانه غير مستعد

لسرعة

لسرعة الانفعال بها بعادة الهلع والجزع ولا قابل اثر الهموم
والاحزان بالاحوال العارضة له وان اصابه من هذه الالام
شي فهو بقدر ما لا ينقله عن السعادة الى ضدها بل لا يخرجه
عن حد السعادة البتة ولو ابتلي بمصايب ايوب عليه السلام
او اضعافه ما اخرجه عن حد السعادة وذلك لما يجد في نفسه
من المحافظة عن شروط الشجاعة والصبر على ما يخرج منه
اصحاب خور الطباع فيكون سروره اولا بذاته ثم
بالاحاديث الجميلة التي تنتشر عنه وروي ان الفاتك الذي
يدعى الشطارة والمصارع الذي يهوى الغلبة كل واحد منهما
يصبر كل واحد منهما على شدايد عظيمة من تقطيع اعضاء نفسه
وترك الشهوات التي يتمكن منها طلبا لما يحصل له من الغلبة
وانتشار الصيت فيرى نفسه احرى واولى منهما
بالصبر اذ كان غرضه اشرف وصيته في الفضلاء ابلغ ولانه
يسعد في نفسه ثم يصير قدوة لغيره وارسطوطاليس يقول
ان بعض الاشياء التي يعرض من سوء البخت يكون يسيرا

سهل المحتمل فاذا عرض للانسان فاحتمله لم يكن فيه دلالة
على كبر نفسه وعظم همته ومن لم يكن سعيدا او لا سبقت له
رياضة بهذه الصناعة الشريفة من تهذيب الاخلاق فانه
سينفعل انفعالا قويا فيعرض له عند حصول المصايب احدى
حالين اما الاضطراب الفاحش والالم الشديد والخروج بهما
الى الحد الذي يرثى له ويرحم واما ان يتشبه بالسعداء
ويسمع مواعظهم فيظهر الصبر والسكون الا انه جزع
الباطن متالم الضمير وكما ان الاعضاء المفلوجة اذا حركت
الى اليمين تحركت الى الشمال كذلك تكون حركات نفوس الاشرار
تتحرك الى خلاف ما يحملونها عليه من الحمل اعني انهم اذا
تشبهوا بالاعضاء وتعاطوا افعالهم تحركت الى ضد ما
حملوها عليه واذا تشبهوا بالامجاد واهل العدالة كانت
هذه حالهم ومما يستدل به من كلام ارسطوطاليس
على انه كان يقول ببقاء النفس بالمعاد المتداول في
كتاب الاخلاق وهو هذا قال قد حكمنا ان السعادة شيء

ثابت

ثابت غير متغير وقد علمنا ايضا ان الانسان قد يلحقه تغيرات
كثيرة باتفاقات شتى فانه قد يمكن فيمن هو ارغد الناس
عيشا ان يصاب بمصايب عظيمة كما رمز في برنامس
ومن يتفق عليه هذه المصايب ومات عليها فليس يسميه
احد من الناس سعيدا فليس ينبغي على هذا القياس ان
يسمى انسان من الناس سعيدا ما دام حيا بل ينتظر به
اخر عمره ثم نحكم عليه فالانسان اذا انما يصير سعيدا
اذا مات الا ان هذا قول في غاية الشناعة اذ كنا نقول
ان السعادة هي فعل ما ثم قال وفي هذا الموضع ايضا موضع
شك فانه قد يظن بالميت انه يلحقه خير وشر اذ كان قد
يلحق الحي ايضا وهو لا يحس به مثل الكرامة والهوان
واستقامة امر الاولاد واولاد الاولاد والتياثها
ففي هذه الاشياء حيرة لانه قد يمكن فيمن عاش عمره
كله الى ان يبلغ الشيخوخة سعيدا وتوفي على هذه السبيل
ان يلحقه مثل هذه التغيرات في اولاده حتى يكون بعضهم

خيارا حسني السيرة وبعضهم بضد ذلك ومن البين انه
قد يمكن ان يوجد بين الاباء والاولاد تباين واختلاف
بكل جهة — ولكن من المنكر ان يكون الميت يتغير غيره
نصر مرة سعيدا ومرة اخرى شقيا ومن المنكر ايضا الا يكون
امور الاولاد متصلة بالوالدين وقتا من الاوقات
ولكن ينبغي ان نعود الى ما كان الشك واقعا فيه فهذا الشك
الذي اورده ارسطوطاليس على نفسه فليس يكون احد
من السعداء شقيا لانه ليس يفعل في وقت من الاوقات
انما الامر ذولة فاذا كان هذا هكذا فالسعيد يكون ابدا
مغبوطا وان حلت به المصايب التي برنامس ولا يكون
ايضا شقيا سريع النقل وذلك انه ليس انما ينتقل عن السعادة
بسهولة ولا ينتقل عنها الافات اليسيرة لكنه لا ينتقل عنها
الا الافات العظيمة الكثيرة وليس انما يكون سعيدا اذا
نالته هذه الامور زمانا يسيرا بل اذا ظفر بامور جليلة
في زمان طويل ثم قال بعد قليل فاما حال الانسان بعد موته

فان

فان القول بان الافات التي تعرض لاولاد الميت واصدقايه
باجمعهم وليس يتعلق به اصلا هو قول غير مقبول اصلا
وهو مضاد لما يعتقده جميع الناس واذا كانت الامور
العارضة لهولاء كثيرة متفننة وكان يتعداهم الى الميت
اكثر وبعضها اقل صارت قسمتنا اياها الى الاشياء الجزئية
بلا نهاية — فاما اذا قيلت قولا كليا وعلى طريق الرسم
فخليق ان يكتفي بما نقوله فيها وهو انه كما ان الافات التي
تعرض للميت في حيوته بعضها تثقل عليه احتماله ويثلم
في سيرته وبعضها يخف عليه احتماله كذلك يكون حاله فيما
يعرض لاولاده واصدقايه وكل واحد من العوارض
التي تعرض للاحيا يخالف ما يعرض لهم اذا ماتوا اكثر من مخالفة
كل ما يضرب به المثل ويشبه ان يكون ان كان يصل اليهم
من هذه الاشياء شي خيرا كان او ضده ان يكون يسيرا نزرا
بمقدار ما لا يجعل غير السعداء سعيدا ولا ينتزع السعادة
من السعداء فهذا حل ارسطوطاليس للشك الذي اورده

ولما قلنا ان السعادة الذ الاشياء وافضلها واجودها
واصحها وجب ان يبين وجه اللذة فيها باتم مما قلناه
فيما مضى فنقول وبالله التوفيق ان اللذة ينقسم قسمين احدهما
لذة انفعالية والاخرى لذة فعلية اى فاعلة فاما اللذة
الانفعالية فهي شبيهة بلذة الاناث واللذة الفاعلة تشبه
لذة الذكور ولذلك صارت اللذة الانفعالية هي التي يشركنا
فيها الحيوانات التي ليست بناطقة وذلك انها مقترنة
بالشهوات ومحبة الانتقام وهي انفعالات النفسين البهيميتين
واما اللذة الاخرى فهي الفاعلة وهي التي تختص بها الحيوان
الناطق ولانها غير هيولانية ولا منفعلة انفعالا لانها
صارت لذة تامة وتلك ناقصة وهذه ذاتية وتلك عرضية
واعني بالذاتية والعرضية ان اللذات الحسية المقترنة
بالشهوات تزول سريعا وينقضي وشيكا بل ينقلب ذواتها
فتصير غير لذات بل يصير الاما او مكروهة شنيعة مستقبحة
وهذه اضداد اللذة ومقابلاتها فاما اللذة الذاتية

فانها

فانها لا تصير في وقت اخر غير لذيذة ولا ينتقل عن حالتها
بل هي ثابتة ابدا واذا كانت كذلك فقد صح حكمنا ووضح
ان السعيد يكون لذته ذاتية لا عرضية وعقلية
لا حسية وفاعلة لا انفعالية والهية لا بهيمية ولذلك
قال الحكما ان اللذة اذا كانت صحيحة ساقت البدن من
النقص الى التمام ومن السقم الى الصحة وكذلك ايضا تسوق
النفس من الجهل الى العلم ومن الرذيلة الى الفضيلة الا ان ههنا
سرا ينبغي ان يقف عليه المتعلم وهو ان ميل الطبع الى
اللذة الحسية ميل قوي حبا وشوقه اليها شوق مزعج
شديد وليس تزيد العادة في قوى الطبع الذي لنا كثير
زيادة لفرط ما جبلنا عليه في المبدا من القوة والشوق
ولذلك متى كانت اللذة حسية قبيحة ثم مال الطبع اليها
بافراط وانفعل لها بقوة استحسن الانسان فيها كل
قبيح وهون على نفسه منها كل صعب ولم ير موضع الغلط
ولا مكان القبيح حتى يبصره الحكمة فاما اللذة العقلية الجميلة

فامرها بالضد وذلك ان الطبع بكرههما فان انصرف الانسان
اليهما بمعرفته وتمييزه احتاج فيهما الى صبر ورياضة حتى اذا
استبصر فيهما وتدرب بهما انكشف له حسنهما وبهاوهما كما
بالضد مما كان في الحس ومن ههنا تبين ان الانسان
في ابتداء كونه محتاج الى سياسة الوالدين ثم الى الشريعة الالهية
والدين القويم حتى يهذبه وتقومه ثم الى الحكمة البالغة
ليتولى تدبيره الى آخر عمره وتبين مع ذلك تعلق السعادة
بالجود وذلك انا قد بينا انها لذة فاعلة ولذة الفاعل
ابدا تكون في الاعطاء ولذة المنفعل ابدا تكون في الاخذ
وليس يظهر لذة السعيد الا بابراز فضايله واظهار حكمته
ووضعها في مواضعها وكما ان الكاتب الجيد انما يلتذ
باظهار كتابته وكذلك البناء الحاذق والصايغ اللطيف
والموسيقار المحسن وبالجملة كل صانع فاضل في صناعته
تسر فضيلته في صناعته كذلك صاحب السعادة انما يلتذ
باظهار فضايله واذاعتها بين اهلها ومستحقيها وهذا

هو معنى الجود وحقيقته الا ان الجود بادونها واخستها
وقد عرض لها الجود مع شرفه وعلو مرتبته ضد ما عرض
لهذا الجود الآخر مع نزارته وقلته وذلك ان صاحب الاموال
والغنيات الخارجة كلما ينتقص ماله بالانفاق وينثلم
بالبذل وتفنى ذخايره بالتبذير بل تنمي وتلك معرضة
للآفات الكثيرة من الاعداء واللصوص والسلاطين وهذه
محروسة من كل آفة لا سبيل للاشرار والاعداء اليها بوجه
ولا سبب فقد ظهرت لذة السعيد كيف يكون ومن اين
يبتدي والى اين ينتهي وكيف يكون السرور الحقيقي واللذة
الذاتية ويبين ايضا انها ابدية وتامة وان ضدها
الذي هو الشقاء لذاته بالضد وعلى العكس اعني ان
لذاتها كلها عرضية ومنتقلة عن طبايعها الى اضدادها
حتى تصير مولمة ومكروهة وانها غير الهية بل شيطانية
وغير ممدوحة بل مذمومة وبقي ان ينظر في السعادة
وهل هي ممدوحة وان ارسطوطاليس يقول ان الاشياء

التي لا توجد لها مديح لكنها افضل واجل من ان يمدح وقال
وذلك انا قد ينسب المتاهلين والجياد من الناس الى
السعادة وليس يوجد احد من الناس يمدح السعادة
نفسها كما يمدح العدالة لكنها يجلها ويكرمها على انها
امر الهي فالاشياء التي هي افضل من المدح الله والخير وذلك
ان ساير الاشياء الفاضلة انما تمدح بان ينسب الى الله
والى الخير فان المديح انما هو للفضيلة والعمل بها ثم انهى
كلامه هذا الى ان قال فالله تعالى اكرم واشرف من ان يمدح
بل انما يمجد ونحن نمجد الله عز وجل تمجيدا كثيرا فاما السعادة
والسعداء فلانها امور الهية فانما تفعل الاشيا كلها لاجلها
فهي لذلك ايضا ممجدة فعلى هذا الاصل ينبغي ان لا نمدح
السعادة لانها اجل من كل مديح بل نمجدها في نفسها ونمدح
الامور كلها بها وبقدر قسطها منها تمت المقالة الثالثة

المقالة الرابعة

قد قلنا فيما سلف ان السعادة
تظهر في الافعال من العدالة والشجاعة والعفة وساير ما

تحت

تحت هذه من الانواع التي احصيناها وجددناها
وهذه الافعال قد تظهر ممن ليس بسعيد ولا فاضل وذلك
انه قد يعمل بعض الناس عمل العدول وليس بعادل ويعمل اعمال
الشجعان وليس بشجاع ويعمل عمل الاعفا وليس بعفيف
ومثال ذلك ان من ترك الشهوات من المآكل والمشارب
وساير اللذات التي ينهمك فيها غيره اما لانه ينتظر منها
اكثر مما يحضره واما لانه لا يعرفها ولم يباشرها كالقرويين
الذين يبعدون عن المدن وكالرعاة في البوادي وقلل
الجبال واما لانه ممتلئ مما يجده ويحضره واما لجمود شهوته
ونقصان تركيبه واما لانه استشعر خوفا من تناولها
ومكروها يلحقه بسببها واما لانه ممنوع منها فان
هؤلاء كلهم يعملون عمل الاعفاء وليسوا باعفاء وانما يسمى
عفيفا على الحقيقة من وفى العفة حدها المذكور فيما
تقدم واختارها لنفسها لا لغرض اخر غيرها واثرها
لانها فضيلة ثم تناول كل واحد من شهواته بمقدار الحاجة

ومن الوجه الذى ينبغى وعلى الحال التى ينبغى وكذلك حال الذى
يعمل عمل الشجعان وليس بشجاع وذلك ان من باشر الحرب واقدم
على ركوب الاهوال لبعض ما يوصل اليه بالمال او لبعض
الرغبات التى لا تحد كثرة فان مثل هذا يعمل اعمال الشجعان
ولكن يعمل بطبيعة الشره ولا بطبيعة الفضيلة التى تدعى
شجاعة وكل من كان اكثر اقداما واصبر على الاهوال لهذه
الحال يجب ان يكون اكثر شرها ونهما لا اكثر شجاعة
وذلك انه يخاطر بنفسه الشريفة ويصبر على المكاره العظيمة
طمعا فى المال وما يوصل اليه بالمال وقد راينا اهل الشطارة
يعملون عمل الاعفاء وعمل الشجعان وهم ابعد الناس من كل
فضيلة وذلك انهم يصبرون عن الشهوات كلها ويصبرون
على عقوبات السلطان وضرب السياط وتقطيع الاعضاء
والجراحات التى لا برء منها وينتهون فيه الى اقصى الصبر حتى
على الصلب وسمل العيون وقطع الايدى والارجل وضروب
المثل طلبا للاسم والذكر بين قوم فى مثل حالهم من سوء الاختيار
ونقصان

ونقصان الفضايل وقد يعمل عمل الشجعان ايضا من يخاف
لايمة عشيرته او عقوبة سلطانه او خوف سقوط جاهه
او ما اشبه ذلك وقد يعمل عمل الشجعان ايضا من اتفق له
مرارا كثيرة ان يغلب اقرانه فهو يتقدم ثقة منه بالعادة
الجارية له وجهلا بمواقع الاتفاقات وقد يعمل عمل الشجعان
العشاق وذلك انهم يركبون الاهوال فى طلب المعشوق لرغبتهم
فى الفجور او لحرصهم على متعة العين منهم لا لطلب الفضيلة
ولا لاختيار الموت الجميل على الحياة الردية كما يفعله الشجعان
بالحقيقة فاما شجاعة الاسد والفيل واشباههما من
الحيوان فانها شبه الشجاعة وليست شجاعة حقيقية
وذلك انها قد وثقت بقوتها وانها يفوق قوة غيرها فهي
يقدم لا بطبيعة الشجاعة بل بتمام القوة والقدرة وثقة
النفس بالغلبة وما كان منها سبعا فهو مع هذه الحال مزاح
العلة فى السلاح الذى عزمه غيره فهو كصاحب السلاح منا
اذا اقدم على الاعزل وليست هذه شجاعة هذا مع عدم الاختيار

الذى يستعمله الشجاع وذلك ان الشجاع خوفه من الامر القبيح
اشد من خوفه للموت فلذلك يختار الموت الجميل على
الحياة القبيحة على ان لذة الشجاع ليست تكون فى مبادى
اموره فان مبادى الامور تكون موذية له ولكنها
تكون فى عواقب ملذة وتكون ايضا باقية مدة عمره و بعد
عمره لا سيما اذا حامى عن دينه وعن اعتقاداته الصحيحة
فى وحدانية الله عز وجل والشريعة وهى التى سياسة الله
وسنته العادلة التى بها مصالح العباد فى الدنيا والاخرة
فان مثل هذا اذا فكر فى قصر مدة عمره وعلم انه سيموت
بعد ايام قلايل ثم كان محبا للجميل ثابتا على الراى الصحيح
فهو لا محالة يحامى عن دينه ويمنع العدو من استباحة حريمه
والتغلب على مدينته ويانف من الفرار ويعلم ان الجبان
اذا اختار الفرار فانما يستبقى شيئا هو لا محالة فان زايل
وان تاخر اياما معدودة ثم هو فى هذه الحياة اليسيرة ممقوت
مسبوب مكدر الحياة بالذل وضروب الصغار وهذه حال

الشجاع

الشجاع مع قوى نفسه اعنى مقاومته لشهواته او استسلامه
لها فان حاله تلك الحال الاولى بعينها واسمع كلام الامام الاجل
سلام الله عليه الذى صدر عن حقيقة الشجاعة فانه
قال لاصحابه ايها الناس انكم الا تقتلوا تموتوا والذى
نفس ابن ابى طالب بيده لالف ضربة بالسيف على الراس
اهون من ميتة على الفراش ومن عرف حد الشجاعة تبين
له ان جميع ما احصيناه الان ليس بمعدود فيها وان كان
يشبهها بالصورة وذلك انه ليس كل من يقدم على الاهوال
فهو شجاع ولا كل من لا يخاف من الفضايح فهو شجاع وذلك
ان من لا يفزع من ذهاب شرفه او فضيحة حرمه او عند
حدوث الرجفات والزلازل والصواعق ومن الزمانة
فى الامراض او عدم الاخوان والاصدقا او عند اضطراب
البحر وهيج الامواج وهويتها فهو بان يوصف بالجنون
مرة وبالقحة مرة اولى من ان يوصف بالشجاعة وكذلك
حال من خاطر بنفسه فى وقت الامن والطمانينة بان يثبت

من سطح عال او يصعد في مرتقى صعب او يحمل نفسه على
خوض غدير وهو لا يحسن السباحة او يسا ورجلا هائجا
او ثورا صعبا او فرسا لم يرض من غير ضرورة تدعوه الى ذلك
بل مرايا ته بالشجاعة واظهار الرتبة الشجعان فان مثل هذا
بان يسمى مطرمذا مايقا اولى منه بان يسمى شجاعا فاما من
خنق نفسه خوفا من الفقر او هلكها بالسم او ما اشبهه
هربا من ذل يخاف بان يصير اليه فهو بان يوصف بالجبن
اولى منه بان يوصف بالشجاعة وذلك ان الاقدام وقع
منه بطبيعة الجبن لا بطبيعة الشجاعة فان الشجاع يصبر على
ما يرد عليه من الشدايد صبرا جميلا ويعمل اعمالا يليق بتلك
الحال كما شرحناه فيما تقدم ولذلك يجب ان يعظم الشجاع
ونشح على نفسه وحقيق على السلطان خاصة والقيم بامر
الدين والملك بان ينافس فيه ويحل قدره ويعلي خطره
ويميزه من ساير من يتشبه به ممن ذكرناه فقد تبين
من جميع ما قلناه ان الشجاع هو الذي يستهين بالشدايد

في الامور

في الامور الجميلة ويصبر على الامور الهايلة ويستعظم ويستخف بما
عوام الناس حتى بالموت لاختيار الامر الافضل ولا يحزن
على ما لا درك فيه ولا يضطرب عند ما يفدحه من المصايب
ويكون غضبه اذا غضب بمقدار ما يجب وعلى ما يجب وفي
الوقت الذي يجب وكذلك يكون انتقامه على هذه الشرايط
فان الحكما قالت ان من لا ينتقم بالحق قلبه فخبول فاذا انتقم
عاد الى حالته من النشاط وهذا الانتقام اذا كان يجب
الشجاعة كان محمودا واذا لم يكن لذلك مذموما فقد نقل
الينا في الاخبار الماثورة عمن اقدم على سلطان قوي ورام
ان ينتقم منه فاهلك نفسه من غير ان يضر سلطانه مرات
كثيرة وكذلك حال من اقدم على قرن قوي او خصم الد لا يستطيع
مقاومته فان الانتقام منه يعود بالا عليه وزيادة
في الذل والمعجزة فاذا ليس تتم شرايط الشجاعة والعفة
الا للحكيم الذي يستعمل كل شي في موضعه الخاص وبقدر تقسيط
العقل له فكل شجاع عفيف حكيم وكل حكيم شجاع عفيف وهذه

الحال بعينها يظهر فيمن عمل اعمال الاسخياء وليس بسخي وذلك
ان من بذل امواله في شهواته او طلبا للسمعة والرياء
او تقربا الى السلطان او لدفع مضرة عن نفسه وحرمه واولاده
او بذلها من لا يستحق من اهل الشر والملهين والمتاجن
او بذلها للطمع في اكثر منها على سبيل التجارة او المرابحة فكل
هؤلاء يعمل عمل الاسخياء وليس بسخي اما بعضهم فيبذل ماله
بطبيعة الشره واما بعضهم فبطبيعة الطرمذة والرياء واما
بعضهم فعلى طريق الازدياد من المال والربح فيه واما بعضهم
فعلى سبيل التبذير وقلة المعرفة بقدر المال وهكذا اكثر
ما يعرض للورثات ولمن تبعت باكتساب المال فلا يعرف صعوبة
الامر فيه ذلك ان المال صعب الاكتساب سهل التفرقة وقد
شبهه الحكماء بمن يرقى حملا ثقيلا الى قلة الجبل ثم يرسله
فان الامر في ترقيته واصعاده صعب ولكن ارساله من
هناك امر سهل فالحاجة الى المال ضرورية في العيش ونافعة
في اظهار الحكمة والفضيلة ومن اكتسبه من وجه صعب عليه ذلك

دل
ان المكاسب الجميلة قليلة ووجوهها يسيرة عند الرجل العا
الحر فاما غير العادل الحر فليس يبالي كيف اكتسب ومن اين وصل
اليه ولاجل ذلك يوجد كثير من الاحرار الفضلاء ناقصي الحظ
منه ويوجدون ايضا ذامين للبخت شاكين منه فاما اضدادهم
فلاجل انهم يكتسبون المال من وجوه الخيانات ولا يبالون
كيف وصلوا اليه فانهم يوجدون ابدا اوفر الحظوظ منه
واسعي النفقة شاكرين لبختهم وترى العامة ذلك فيغبطونهم
ويحسدونهم الا ان العاقل اذا راى نفسه وهو بريء من المذمات
نقي العرض من السوآت لم يتدنس بشيء من القبيح من المكاسب
ولم يتطرق اليه بخيانة ولا سرقة ولا ظلم لمن هو دونه
او مثله وتجنب فيه وجوه العار والفضائح كالقيادة
والخداع وترويج السلع القبيحة على الملوك واستنزالهم
عن اموالهم بالخدع والمكر ومساعدتهم على الفواحش وتحسين
القبائح مما يوافق هواهم وما يجري مجرى ذلك من السعاية
والنميمة والغيبة وضروب الفساد التي يرتكبها طلاب المال من

غير وجهه بضروب المغابنات ووجوه الظلم يسر بنفسه
ويعتاض من المال الراحة والمحمدة فلا يلوم البخت ولا
الدول ولا يحسد اصحاب الاموال المكتسبة من غير وجوهها
الجميلة فهذه احوال المكتسبين للاموال ومنفقيها وكذلك
حال من يعمل عمل العدول وليس بعدل وذلك انه اذا عدل في
بعض الامور مرا ياه ليصل به الى كرامة او مال او غير ذلك
من الشهوات او بغرض آخر مما عددناه فيما تقدم فليس
عادلا وانما يعمل اعمال العدول للغرض التي يقصدها فينبغي
ان ينسب فعله الى غرضه فانه بحسب هذا يفعل ذاك
كما قلنا وشرحنا فاما العادل بالحقيقة فهو الذي يعدل
قواه وافعاله واحواله كلها حتى لا يزيد بعضها على البعض ثم
يروم ذلك فيما هو خارج عنه من المعاملات والكرامات ويقصد
في جميع ذلك فضيلة العدالة نفسها غرضا اخر سواها وانما يتم
له ذلك اذا كانت له هيئة نفسانية ادبيه يصدر عنها افعاله
كلها بحسبها ولما كانت العدالة توسطا بين اطراف وهيئة يعدل

بها على رد الزايد والناقص لبيه صارت اتم الفضايل
واشبهها بالوحدة واعني بذلك ان الوحدة هي التي لها الشرف
الاعلى والرتبة القصوى والكثرة والقلة هي التي تفسد
الاشيا اذا لم يكن بينها مناسبة تحفظ عليها الاعتدال بوجه
ما والاعتدال هو الذي يرد اليها ظل الوحدة ومعناها
وهو الذي يلبسها شرف الوحدة ويزيل عنها رذيلة الكثرة
والتفاوت والاضطراب الذي لا يحد ولا يضبط بالمساواة
التي هي خليفة الوحدة في جميع الكرامات واشتقاق هذا الاسم
بذلك على معناه وذلك ان العدل في الاحوال والاعتدال في الانفعال
والعدل في الافعال مشتقة من معنى المساواة والمساواة هي اشرف
النسب المذكورة في صناعة الموسيقي وغيرها ولذلك لا ينقسم ولا يوجد
لها انواع فانما هي وحدة في معناها او ظل للوحدة فلذا لم نجد
المساواة التي هي المثل بالحقيقة في الكثرة عدلنا الى النسب المذكورة
التي تحمل اليها وتعود الى حقيقتها وذلك انا نضطر الى
ان نقول نسبة هذا الى هذا كنسبة هذا الى هذا ولهذا لا يوجد

النسبة الا بين اربعة او ثلثة يتكرر فيها الوسط فيصير ايضا
اربعة فالنسبة الاولى تسمى منفصلة والنسبة الثانية تسمى متصلة
ومثال الاولى انا ناخذ المتناسبين منفصلين فنقول نسبة
آ الى بَ كنسبة جَ الى دَ ومثال الثانية ان ناخذ الباء مشتركا
فنقول نسبة آ الى بَ كنسبة بَ الى جَ وهذه النسبة توجد
في ثلثة اشيا وهي النسبة العددية والنسبة المساحية والنسبة
التاليفية وجميع ذلك مبين مشروح في المختصر الذى عملناه
في صناعة الانماطيقى فاما ساير النسب فراجعة اليها ولذلك
عظمها الاوايل واستخرجوا بها العلوم الجمة الشريفة ولما كانت
نسبة المساواة عزيزة لانها مطرقة عدلنا الى لفظ هذه النسب
الاخر في الامور الكثيرة التى نلابسها لانها عايدة اليها وغير
خارجة عنها فنقول ان العدالة الخارجة عنا موجودة في
ثلثة مواضع احدها في قسمة الاموال والكرامات والثاني
في قسمة المعاملات الارادية كالبيع والشراء والمعاوضات
والثالث في قسمة الاشياء التى وقع فيها ظلم وتعدٍّ فاما العدل

في الامور

في الامور التى يكون في القسم الاول فيكون بالنسبة المنفصلة
التى بين الاربعة اعنى ان يكون نسبة الاول الى الثاني
كنسبة الثالث الى الرابع مثال ذلك ان يقال نسبة هذا الانسان
الى هذه الكرامة او الى هذا المال كنسبة كل من كان في مثل رتبته
الى مثل قسطه فاذًا يجب ان يوفر عليه ويسلم اليه فاما في
الامور التى يكون في القسم الثاني اعنى المعاملات فيكون بالنسبة
المنفصلة مرة وبالنسبة المتصلة اخرى مثال ذلك ان يقول
نسبة هذا البزاز الى هذا الاسكاف كنسبة هذا الثوب الى هذا
الخف ثم ليس يمنع مانع ان يقول نسبة البزاز الى الاسكاف كنسبة
الاسكاف الى النجار او تقول نسبة الثوب الى الخف كنسبة الخف
الى الكرسي وتبين لك من هذين المثالين ان النسبة الاولى
تكون بالعمق فقط والنسبة الثانية يكون بالعرض والعمق جميعا
اعني ان الاولى تقع بين الكليين والجزئيين فهو بالعمق اشبه
والثانية تقع بالعرض في الجزئيين جميعا فقد يقع بين الكليين
والجزئيين ايضا فاما العدالة التى تقع في المظالم والامور

الغشمية فهي بالنسبة المساحية اشبه وذلك لان الانسان
متى كان على نسبة من انسان اخر فابطل هذه النسبة بحيف
او ضرر يلحقه به فان العدالة توجب ان يلحق به ضرر مثله
ليعود التناسب الى ما كان عليه فالعادل من شانه ان يساوي
بين الاشيا غير المتساوية مثال ذلك ان الخط اذ قسم بقسمين
غير متساويين نقص من الزايد وزاد على الناقص حتى يحصل
له التساوي ويذهب عنه معنى القلة والكثرة ومعنى الزيادة
والنقصان وكذلك الخفة والثقل وجميع ما اشبه ذلك ولكن ينبغي
ان يكون عالما بطبيعة الوسط حتى يرد الطرفين اليه
مثال ذلك الربح والخسران فانهما من باب المعاملات طرفان
احدهما زيادة والاخر نقصان فان اخذ اقل مما يجب صار
الى جانب النقصان وان اخذ اكثر مما يجب كان خارجا الى جانب الزيادة
والشريعة هي التي ترسم في كل قاصد من هذه الاشياء التوسط
والاعتدال ولان الناس هم المدنيون بالطبع ولا يتم لهم
عيش الا بالتعاون فبعضهم يجب ان يخدم بعضا وياخذ بعضهم

من بعض

من بعض ويعطي بعضهم بعضا فهم يطلبون المكافاة على المناسبة
فاذا اخذ الاسكاف من النجار عمله واعطاه عمله فهو المعاوضة
اذا كان العملان متساويين ولكن ليس يمنع مانع ان يكون
عمل الواحد خيرا من عمل الاخر فيكون اليسار هو المقدم والمساوي
بينهما فالدينار هو عدل متوسط الا انه ساكت والانسان
الناطق هو الذي يستعمله ويقوم به جميع الامور التي يكون
بالمعاملات حتى يجري على استقامة ونظام ومناسبة صحيحة
عادلة ولذلك يستعان بالحاكم الذي هو عدل ناطق اذا
لم يستقم الامر بين الخصمين بالدينار الذي هو عدل ساكت
ومعنى الناموس في لغتة السياسة والتدبير وما اشبه ذلك
فهو يقول في كتابه المعروف نيقوماخيا ان الناموس الاكبر
هو من عند الله تبارك وتعالى والحاكم ناموس ثان من قبله و
الدينار ناموس ثالث فناموس الله تعالى قدوة النواميس
كلها يعني الشريعة والحاكم الثاني مقتد به والدينار مقتد
ثالث وانما قومت الاشياء المختلفة بالاثمان المختلفة لتصح

المشاركات والمعاملات وتبيين وجه الاخذ والاعطا
فالدينار هو الذي يساوي بين المختلفات ويزيد في شي
وينقص في اخر حتى يحصل بينهما الاعتدال فتستوي المعاملة
بين الفلاح والنجار مثلا وهذا هو العدل المدني وبالعدل
المدني عمرت المدن وبالجور المدني خربت المدن وليس
يمنع مانع من ان يكون عمل يسير يساوي عملا كثيرا ومثال ذلك
ان المهندس ينظر نظرا قليلا ويعمل عملا يسيرا ويساوي نظره
هذا عملا كثيرا من اقوام يكدون بين يديه ويعملون بامره
وكذلك صاحب الجيش يكون تدبيره ونظره يسيرا ولكنه
يساوي اعمالا كثيرة ممن يحارب بين يديه ويعمل الاعمال
الثقيلة العظيمة فالجاير يبطل التساوي وهو عند ارسطوطاليس
على ثلث منازل فالجاير الاعظم هو الذي لا يقبل الشريعة
ولا يدخل تحتها والجاير الثاني هو الذي لا يقبل قول الحاكم
العادل في معاملته واموره كلها والجاير الثالث هو الذي
لا يكتسب ويغتصب الاموال فيعطي نفسه اكثر مما يجب لها وغيره

اقل

اقل مما يجب له قال فالمتمسك بالشريعة يعمل بطبيعة المساواة
فيكسب الخير والسعادة من وجوه العدالة لان الشريعة
تامر بالاشياء المحمودة لانها من عند الله تعالى فلا تامر
الا بالخير وبالاشيا التي تفضل وهي ايضا تنهى عن الرذالات
البدنية وتامر بالشجاعة وحفظ الترتيب والثبات في
مصاف الجهاد وتامر بالعفة وتنهى عن الفسق والافتراء
والشتم والهجو وبالجملة تامر بجميع الفضايل وتنهى عن جميع الرذايل
فالعادل يستعمل العدالة في ذاته وفي شركائه المدنيين
والجاير يستعمل الجور في ذاته وفي اصدقائه ثم في جميع شركائه
المدنيين قال وليست العدالة جزءا من الفضيلة بل هي الفضيلة
كلها ولا الجور الذي هو ضدها جزءا من الرذيلة لكنها
الرذيلة كلها فبعض انواع الجور ظاهر يفعل بالارادة مثل
ما يكون في البيع والشرا والكفالات والقروض والعقاري
وبعضها خفي يفعل ايضا بالارادة مثل السرقة والفجور ومثل
القيادة وخداع المماليك وشهادة الزور وبعضها غشمي على

سبيل التغلب مثل التعذيب بالرهق والقيود والاغلال
والغربة فالامام العادل الحاكم بالسوية يبطل هذه الانواع
ويخلف صاحب الشريعة في حفظ المساواة فهو لا يعطي
ذاته من الخيرات اكثر مما يعطي غيره ولذلك قيل في الخيرات
الخلافة تظهر الانسان قال فاما العامة فانها تؤهل للامامة
اعني الخلافة من كان شريفا في جنسه ونسبه وبعضهم يؤهل
لذلك من كان كثير المال فاما العقلاء فانهم يؤهلون لذلك
من كان حكيما فاضلا فان الحكمة والفضيلة هي التي تعطي الرياسات
والسيادات الحقيقية وهي التي رتبت الاول والثاني في
مرتبتهما وفضيلتهما واسباب المضرات تنقسم الى اربعة
انواع احدها الشهوة ويتبعها الرداءة والثاني الشرارة
ويتبعها الجور والثالث الخطاء ويتبعها الحزن والرابع
الشقا ويتبعها حيرة معها مذلة وحزن اما الشهوة
فانها تحمل الانسان على الاضرار بغيره الا انه لا يكون مؤثرا
له ولا ملتذا به ولكنه يفعل ليصل به الى شهوته وربما كان

مثالا

مثالا لما كان كارها له الا ان قوة الشهوة تحمله على ارتكاب ما يرتكبه
واما الشرير فانه يتعمد الاضرار بغيره على سبيل الايثار له
والالتذاذ به كمن يسعى الى السلطان ويحمله على ازالة نعمة
لا يصل اليه منها شيء لكن يتلذذ بالمكروه الذي يصل الى غيره
واما الخطاء فان صاحبه لا يقصد الاضرار ولا يؤثره ولا يلتذ به
بل يقصد فعلا اما فيعرض منه فعل اخر وصاحب هذا الفعل
يحزن ويكتئب لما اتفق عليه من الخطا واما الشقا فصاحبه
لا يكون مبدا فعله ولا له فيه صنع بالقصد لكن يوقعه
فيه سبب آخر من خارج وذلك كمن يصدم به دابته المداد
صديقا له فيقتله فهذا يسمى شقيا وهو مرحوم معذور
لا يجب عليه عتب ولا عقوبة فاما السكران والغضبان
والغيران اذا فعلوا فعلا قبيحا فانهم يستحقون العتب
والعقوبة لان مبدا فعلهم اليهم وذلك لان السكران يختار
ازالة العقل والغضبان والغيران يختاران الانقياد
لهاتين القوتين اذا هاجتا به ونعود الى ما كنا فيه من ذكر

العدالة. فيقول ارسطاليس قسم العدالة الى ثلثة اقسام احدها
ما يقوم به الناس لرب العالمين وهو ان يجري الانسان
فيما بينه وبين الخالق عز وجل على ما ينبغي وبحسب ما يجب عليه
من حقه وبقدر طاقته وذلك ان العدل اذا كان انما هو اعطاء
ما يجب كما يجب فمن المحال الا ان يكون لله تعالى الذي وهب لنا
هذه الخيرات العظيمة واجب ينبغي ان نقوم به الناس
والثاني ما يقوم به بعض الناس لبعض من اداء الحقوق وتعظيم
الرؤساء وتأدية الامانات والنصفة في المعاملات
والثالث ما يقومون به من حقوق اسلافهم مثل اداء الديون
عنهم وانفاذ وصاياهم وما اشبه ذلك فهذا ما قاله
ارسطوطاليس فاما تحقيق ما قاله مما يجب لله عز وجل
وان كان ظاهرا فانا نقول فيه ما يليق بهذا الموضع وهو
ان العدالة لما كانت تنظر في الاخذ والاعطاء والكرامات
التي ذكرناها وجب ان يكون لما يصل الينا من عطيات الخالق
عز وجل ونعمه التي لا تحصى حق تقابل عليه وذلك ان من اعطى

خيرا ما

خيرا ما وان كان قليلا ثم لم ير ان يقابله بضرب من المقابلة
فهو جاير فكيف به اذا اعطي جما كثيرا واخذ اخذا دايما
ثم لم يعط في مقابلته شيئا البتة ثم قدر النعمة التي تصل الى
الانسان يجب ان يكون اجتهاده في المقابلة عليها ومثال
ذلك ان الملك الفاضل اذا امن السرب وبسط العدل
واوسع العمارة وحمى الحريم وذب عن الحوزة ومنع من
التظالم ووفر الناس على ما يختارونه من مصالحهم ومعايشهم
فقد احسن الى كل احد من رعيته احسانا يخصه في
نفسهم وان كان قد عمهم بالخير واستحق من كل واحد
منهم ان يقابله ضربا من المقابلة متى قعد عنه كان جايرا
اذا كان ياخذ نعمته ولا يعطيه شيئا لكن مقابلة الملك
الفاضل من جهة رعيته انما يكون باخلاص الدعاء ونشر المحاسن
وجميل الشكر وبذل الطاعة وترك المخالفة في السر والعلانية
والمحبة الصادقة واتمام سيرته بنحو استطاعته والاقتداء به
في تدبير منزله واهله وولده وعشيرته فان نسبة الملك الى مدينته

ورعيته كنسبة صاحب المنزل الى منزله واهله فمن لم يقابل ذلك
الاحسان بهذه الطاعة والمحبة فقد جار وظلم وهذا الجور
والظلم اذا كان في مقابلة النعم الكثيرة فهو افحش واقبح وذلك
ان الظلم وان كان في نفسه قبيحا فان مراتبه كثيرة لان مقابلة
مقابلة كل نعمة انما يكون بحسب منزلتها وموقعها وبقدر فوايدها
وعايدتها وعلى مقدار عددها فان كانت النعم كثيرة العدد
وعظيمة الموقع فكيف تكون حال من لا يلزم لها حقا
ولا يرى عليها مقابلة بطاعة ولا شكر ولا محبة صادقة
ولا مساعاة صالحة فاذا كان هذا معروفا غير منكر وواجبا
غير مجحود في ملوكنا ورؤسائنا فكم بالحري ان يكون لملك
الملوك الذي يصل الينا في كل يوم بل كل طرفة عين ضروب احسانه
الفايض على اجسامنا ونفوسنا التي لا يقع عليه احصاء
ولا عدد من الحقوق الواجب علينا القيام بها والنهوض
بتاديتها الا ترانا نجهل النعم الاولى علينا بالوجود ثم نعما بعدها
متواترة بعد ذلك بالخلق الجسداني الذي افنى فيه صاحب
كتابي

كتابي التشريح ومنافع الاعضاء نحو الف ورقة ثم لم يبلغ
بعض ما عليه كنه الامر ام ترانا نجهل ما وهب لنا من نفوسنا
من القوى والملكات التي لا نهاية لها ولا امدها من فيض
العقل ونوره وبهائه وبركاته وما عرضنا به للملك الابدي
والنعيم السرمدي لعمري ما نجهل هذه النعم الا النعم
فاما الانسان فيعرف من ذلك ما تضطره اليه مشاهدة
العيان احواله في جميع اوقاته واذا كان الخالق تعالى غنيا
عن معونتنا ومساعينا فمن المحال القبيح والجور الفاحش
الا نلتزم بحق له حقا ولا نقابل على هذه الالاء والنعم بما يزيل
عنا سمة الجور والخروج عن شروط العدل الا ان ارسطوطاليس
في هذا الموضع لم ينص على العبادة التي يجب ان نلتزمها
لخالقنا عز وجل غير انه قال ما هذه حكايته وقد اختلف
الناس فيما ينبغي ان يتقدم به المخلوق لخالقه تعالى جده
فبعضهم راى انه صلوة وصيام وخدمة هياكل ومصليات
وقرابين وبعضهم راى ان يقتصر على الاقرار بربوبيته

والاعتراف باحسانه وتمجيده بحسب استطاعته وبعضهم
رأى ان يتقرب اليه بان يحسن الى نفسه بتزكيتها وحسن
سياستها والاحسان الى المستحقين من اهل نوعه بالمواساة
ثم بالحكمة والموعظة وبعضهم رأى ان اللهج بالفكر في
الالهيات والتصرف نحو المحاولات التي يتزيد بها الانسان
من معرفة ربه عز وجل حتى يتكامل معرفته به وتحقيقه وحدانيته
وصرف الوله اليه مما يجب على الانسان لخالقه وبعضهم رأى
ان الواجب لله جل ذكره على الناس ليس سبيلا واحدا ولا هو
شيء بعينه يلتزمه الجميع التزاما واحدا وعلى مثال واحد ولكنه
يختلف بحسب اختلاف طبقات الناس ومراتبهم من العلم
فهذا ما قاله ارسطوطاليس بالفاظ المنقولة الى العربية فاما ما
قاله الحدث من الفلاسفة فانهم قالوا عبادة الله عز وجل
في ثلثة انواع احدها فيما يجب على الابدان كالصلوة والصيام
والسعي الى المواقف الشريفة لمناجاة الله عز وجل والثاني فيما
يجب على النفوس كالاعتقادات الصحيحة مثل العلم بتوحيد الله تعالى

وما يستحقه

وما يستحقه من الثناء والتمجيد وكالفكر فيما افاضه على
العالم من جوده وحكمته ثم الاتساع في هذه المعارف
والثالث فيما يجب له عند مشاركات الناس في المدن
وهي في المعاملات والمزارعات والمناكح وفي تادية
الامانات ونصيحة البعض للبعض بضروب المعاونات
وعند جهاد الاعداء والذب عن الحريم وحماية الحوزة
قالوا فهذه العبادات هي الطرق المؤدية الى الله تعالى
وهي التي يجب له على عباده وقال الاخرون عبادة الله تعالى
في ثلث وهي الاعتقاد الحق والقول الصواب والعمل الصالح
ثم ان العمل ينقسم الى البدني كالصيام والصلوة والى ما هو
خارج الى البدن كالمعاملات والجهاد ثم ان المعاملات
ينقسم الى المعاوضات والمناكح والمعاونات وهذه الانواع
وان كانت معدودة محصورة فانها منقسمة الى انواع كثيرة
واقسام غير محصاة وللانسان فيها مقامات ومنازل
عند الله عز وجل فالمقام الاول للموقنين وهو رتبة الحكماء

واجلة العلما والمقام الثانى مقام المحسنين وهو رتبة الذين
يعملون بما يعلمون وهو ما ذكرناه فى كتابنا هذا من الفضايل
والعمل بها والمقام الثالث مقام الابرار وهو رتبة المصلحين
وهؤلاء هم خلفاء الله عز وجل بالحقيقة فى اصلاح العباد
والبلاد والمقام الرابع مقام الفايزين وهو رتبة المخلصين
فى المحبة واليها ينتهى رتبة الاتحاد وليس بعدها منزلة
ولا مقام لمخلوق ويسعد الانسان بهذه المنازل اذا
حصلت له اربع خلال اولها الحرص والنشاط والثانى العلوم
الحقيقية والمعارف اليقينية والثالث الحياء من الجهل
ونقصان القريحة الذين يحدثان بالاهمال والرابع لزوم
هذه الفضايل والترقى فيها دايما بحسب الاستطاعة فهذه
اسباب الاتصال وههنا انقطاعات عن الله تعالى وسواقط
وهى التى تعرف باللعاين فاولها السقوط الذى يستحق به
الاعراض ويتبعه الاستهانة والثانى السقوط الذى
يستحق به الحجاب ويتبعه الاستخفاف والثالث السقوط

الذى

الذى يستحق به الطرد ويتبعه المقت والرابع السقوط
الذى يستحق به الخساءة ويتبعه البغض وانما يشقى العبد
خصال
اذا حصل على اربع خلال اولها الكسل والبطالة ويتبعها
ضياع الزمان وفناء العمر بغير فايدة انسانية والثانية
الغباوة والجهل المتولدان عن ترك النظر ورياضة النفس
بالتعاليم التى احصيناها فى كتاب ترتيب السعادات والثالثة
الوقاحة التى ينتجها اهمال النفس اذا اتبعت الشهوات وترك
ذمها عن ركوب الخطايا والسيات والرابعة الانهماك الذى
يحدث من الاستمرار فى القبايح وترك الانابة وهذه الانواع
الاربعة مسماة فى الشريعة باربعة اسما فالاول هو الزيغ
والثانى هو الرين والثالث هو الغشاوة والرابع هو الختم ولكل
واحد من هذه الشقاوات علاج خاص سنذكره عند مداواة
اسقام النفس حتى تعود الى الصحة باذن الله وهذه الاشياء
التى عددناها الان لا خلاف بين الحكما وبين اصحاب الشرايع
وانما يختلف بالعبارات عنها والاشارات اليها بحسب اللغات

وافلاطن يقول ان العدالة اذا حصلت للانسان اشرق
بها كل واحد من اجزاء النفس على كل واحد منها وذلك
لحصول فضايلها اجمع فيها فحينئذ تنهض النفس فتؤدي
فعلها الخاص بها على افضل ما يكون وهو غاية قرب الانسان
السعيد من الاله تقدس اسمه قال فالعدالة توسط
ليس على جهة التوسط الذي في الفضايل التي تقدم ذكرها
لكن لانه في الوسط والجور في الطرفين وانما صار الجور
في الطرفين لانه زيادة ونقصان معًا وذاك ان من شان
الجور طلب الزيادة والنقصان معًا اما الزيادة فمن النافع
على الاطلاق واما النقصان فمن الضار فلذلك يكون الجاير
مستعملا للزيادة والنقصان معًا اما لنفسه فيستعمل
الزيادة في النافع واما لغيره فيستعمل النقصان منه
واما الضار فبالضد وعلى العكس وذلك انه اما لنفسه فيستعمل
النقصان واما لغيره فيستعمل الزيادة والفضايل التي قلنا
انها اوساط بين الرذايل هي غايات ونهايات وذلك

ان الوسط

ان الوسط ههنا نهاية لها من كل جهة فهو في غاية البعد منها
ولذلك من بعد من الوسط زيادة بعدٍ قرب من رذيلة
كما قلنا فيما تقدم فقد تبين من جميع ما قدمنا ان الفضايل
كلها اعتدالات وان العدالة اسم يشملها ويعمها كلها
وان الشريعة لما كانت تقدر الافعال الارادية التي تقع
بالروية وبالوضع الالهي صار المتمسك بها في معاملاته
عدلا والمخالف لها جايرا فلهذا قلنا ان العدالة لقب
للمتمسك بالشريعة الا انا قد قلنا مع ذلك انها هيئة نفسانية
فانك ترى روية واضحة ان صاحبها ينقاد لا محالة
للشريعة طوعًا ولا يضادها بنوع من انواع التضاد وذلك
انه اذا حافظ على المناسبات التي ذكرناها لانها مساواة
وآثرها بعد اجالة الراي فيها على سبيل الاختيار لها والرغبة
فيها وجب عليه موافقة الشريعة وترك مخالفتها واقل ما تكون
المساواة بين اثنين ولكنها تكون في معاملة مشتركة بينهما
وهو الشيء الثالث وربما كان شيئان فيصير المناسبات

بين اربعة كما قلنا ايض وينبغي ان تعلم ان هذه الهيئة
النفسانية هي غير الفعل وغير المعرفة وغير القوة اما الفعل
فلانا قد بينا انه يقع عن غير هيئة نفسانية كمن يعمل اعمال
العدالة وليس بعادل وكمن يعمل اعمال الشجاعة وليس بشجاع
واما القوة والمعرفة فلان كل واحدة منهما هي بعينها
للضدين معًا فان العلم بالضدين واحد وكذلك القوة على
الضدين قوة واحدة فاما الهيئة القابلة لاحد الضدين
فهو غير الهيئة القابلة للضد الاخر ومثال ذلك هيئة الشجاع
فانها غير هيئة الجبان وكذلك هيئة العفة غير هيئة الشره
وهيئة العدالة غير هيئة الجور ثم ان العدالة والحرية تشتركان
في باب المعاملات والاخذ والاعطاء الا ان العدالة تقع في
اكتساب المال على الشرايط التي ذكرناها ايض ومن شان من
يكتسب ان ياخذ بالمنفعل اشبه ومن شان المنفق ان يعطي
فهو بالفاعل اشبه فلهذا محبة الناس للحر اشد من محبتهم
للعادل الا ان النظام العالم بالعدالة اكثر منه بالحرية وخاصة
الفضيلة

الفضيلة هي في فعل الخير لا في ترك الشر وخاصة محبة الناس
وحمدهم في بذل المعروف لا في جميع المال فالحر لا يكره المال
ولا يجمعه لذاته بل ليصرفه في وجوهه التي يكتسب بها المحبات
والمحامد ومن خاصة الحر ان لا يكون كثير المال لانه منفاق
ولا يكون ايضا فقيرا لانه كسوب من حيث ينبغي وهو غير متكاسل
عن الكسب البتة لانه بالمال يصل الى فضيلة الحرية ولذلك لا يضيع
المال ولا يستعمل فيه التبذير ولا ايضا يسمح به فلا يستعمل
التقتير فكل حر عادل وليس كل عادل حرا وفي هذا الموضع
مسئلة عويص سال عنها الحكما انفسهم واجابوا عنها بجواب مقنع
ويمكن ان يجاب فيها بجواب اخر هو اشد اقناعا ويجب
ان يتذكر بذكر الجميع وهو ان امتثال ان يسل فنقول اذا
كانت العدالة فعلا اختياريا يتعاطاها العادل ويقصد بها
تحصيل الفضيلة لنفسه والمحمدة من الناس فيجب ان يكون الجور
فعلا اختياريا يتعاطاه الجاير ويقصد به تحصيل الرذيلة
لنفسه ومذمة الناس ومن القبيح الشنع ان يظن بالانسان

العاقل انه يقصد الاضرار بنفسه بعد الروية وعلى سبيل الاختيار
ثم اجابوا عن ذلك وحلوا هذا الشك بان قالوا ان من ارتكب
فعلا يؤديه الى ضرر او عذاب فانه يكون ظالما لنفسه
وضارا لها من حيث يقدر انه ينفعها وذلك لسوء اختياره
وترك مشاورة العقل فيه ومثال ذلك الحاسد فانه ربما جنى
على نفسه لا على سبيل ايثار الاضرار بها بل لانه يظن انه ينفعها بالعاجل
في الخلاص من الاذى الذي يلحقه من الحسد فهو جواب القوم فاما الجواب
الآخر فهو ان الانسان لما كان ذا قوى كثيرة يسمى بمجموعها انسانا
واحدا لم ينكر ان تصدر عنه افعال مختلفة بحسب تلك القوى وانما
المنكر ان يكون الشيء الواحد البسيط ذا القوة الواحدة
يقع منه بتلك القوة افعال مختلفة لا بحسب الآلات المختلفة
ولا بقدر القابلات منه بل بذلك القوة الواحدة فقط فهذا
لعمري منكر شنيع ولكن الانسان قد تبين من حاله ان له قوى كثيرة
فيعمل بكل قوة عملا مخالفا للعمل الآخر اعني ان صاحب الغضب
اذا استشاط يختار افعالا ومحاولات لافعاله اذا كان ساكنا

وادعا

وادعا وكذلك صاحب الشهوة الهايجة وصاحب الشوق الطروب
فان من هؤلاء ان يستخدموا العقل الشريف في تلك الحال
ولا يستشيرونه ولذلك تجد العاقل اذا تغيرت احواله
تلك فصار من الغضب الى الرضا ومن السكر الى الافاقة يتعجب
من نفسه وقال ليت شعري كيف اخترت الافعال
القبيحة فيلحقه الندم وانما ذلك لان القوة التي تهيج به تدعوه
الى ارتكاب فعل يظنه في تلك الحال صالحا جميلا له حركة القوة
الهايجة به فاذا سكن عنها وراجع عقله رأى قبح ذلك الفعل
وفساده وقوى الانسان التي تدعوه الى ضروب الشهوات
ومحبة الكرامات لا يستحقها كثيرة جدا فهو بحسب قواه الكثيرة
تكون افعاله كثيرة فاذا اتفق للانسان ان تكون سيرته فاضلة
ولم يقدم على شيء من افعاله الا بعد مطالعة العقل الصحيح وبعد
مراعاة الشريعة القويمة كانت افعاله كلها منتظمة غير مختلفة
ولا خارجة عن سنن العدل اعني المساوات التي قدمنا القول
فيها ولهذا السبب قلنا ان السعيد هو من اتفق له في صباه

ان يانس بالشريعة ويستسلم لها ويتعود جميع ما تامر به حتى
اذا بلغ المبلغ الذى يمكنه معه ان يعرف الاسباب والعلل
طالع الحكمة فوجدها موافقة لما تقدمت عادته به فاستحكم
رايه وقويت بصيرته ونفذت عزيمته وههنا مسئلة
عويص اشد من الاولى وهى ان التفضل محمود جدا وليس يقع
تحت العدالة لان العدالة كما ذكرنا مساواة والتفضل زيادة
وقد حكمنا ان العدالة تجمع الفضايل كلها ولا مزيد عليها
بل يجب ان يكون الزيادة عليها مذمومة كما ان النقصان
عنها مذموم ليكون شرف الوسط الذى تقدم وصفه فى
ساير الاخلاق حاصلا للعدالة فالجواب عنها ان التفضل
احتياط يقع من صاحبه فى العدالة ليامن به وقوع النقص
فى شئ من شرايطها وليس الوسط فى كل طرفين من الاخلاق
على شريطة واحدة وذلك ان الزيادة فى باب السخا اذا لم يخرج
الى التبذير احسن من النقصان منه واشبه بالمحافظة
على شرايطه حتى يصير كالاحتياط عليه واخذ الحزم فيه واما العفة

فان

فان النقصان من الوسط فيها احسن من الزيادة عليه
واشبه بالمحافظة على شرايط ومع ذلك فليس يستعمل التفضل
الا حيث يستعمل العدالة واعنى بذلك ان من اعطى ماله من
لا يستحق شيئا منه وترك مساواة من يستحقه لا يسمى متفضلا
بل مضيعا وانما يكون متفضلا اذا اعطى من يستحق كل ما يستحق
ثم زاده تفضلا وهذه الزيادة ليست من الزيادة التى ذكرناها
فى باب السخا لان تلك الزيادة ذهاب الى الطرف الذى يسمى
تبذيرا وهو مذموم ويسهل عليهم بعد ذلك جميع ما ترسمه
الحكمة وتحده الشريعة والسنة ويعتادون ضبط النفس
عما تدعوهم اليه من اللذات القبيحة وتكفهم عن الانهماك
فى شئ منها والفكر الكثير فيها وتشوقهم الى مرتبة الفلسفة العالية
وترقيهم الى معالى الامور التى وضعناها فى اول الكتاب من
التقرب الى الله عز وجل ومجاورة الملائكة مع حسن الحال فى الدنيا
وطيب العيش وجميل الاحدوثة وقلة الاعداء وكثرة المداح
والراغبين فى مودته من الفضلاء خاصة فاذا تجاوز هذه

الدرجة وبلغ امامه الى ان يفهم اغراض الناس وعواقب
الامور فُهّم ان الغرض الاخير من هذه الاشياء التي تقصدها
الناس ويحرصون عليها من الثروة واقتناء الضياع والعبيد
والخيل والفرش واشباه ذلك انما هو ترفيه البدن وحفظ
صحته وان يبقى على اعتداله مدة ما والا يقع في الامراض
ولا تعجله المنية وان ينهمك في نعم الله عليه ويستعد لدار البقاء
والحياة السرمدية وان اللذات البدنية كلها بالحقيقة
هي خلاص من الالام وراحات من تعب فاذا عرف ذلك وحققه
ثم تعوده بالسيرة الدائمة عن الرياضات تحرك الحرارة الغريزية
وتحفظ الصحة وتنفي الكسل وتطرد البلادة وتبعث النشاط
وتذكي النفس فمن كان سمّي لا مُعرفا كانت هذه الاشياء
التي وسمتها اصعب عليه الكثرة من يختف به ويغويه والموافقة
طبيعة الانسان في اول ما ينشأ هذه اللذات واجماع جمهور
الناس على نيل ما امكنهم منها وطلب ما تعذر عليهم بغاية جهدهم
واما الفقراء والامراء اسهل عليهم بل هم قريبون الى الفضائل قادرون

عليها

عليها متمكنون من نيلها والاصابة منها وحال المتوسطين
من الناس متوسط بين هاتين الحالتين وقد كان ملوك
الفرس الفضلاء لا يربّون اولادهم بين حشمهم وخواصهم
خوفا عليهم من الاحوال التي ذكرتها فكانوا ينفذونهم
مع ثقاتهم الى النواحي البعيدة منهم ومن سماع ما حدثت
منهم فكان يتولى تربيتهم اهل الجفاء وخشونة العيش من
لا يعرف التنعم ولا الترفه واخبارهم في ذلك مشهورة
وكثير من رؤساء الديلم في زماننا هذا ينقلون اولادهم
عند ما ينشؤون الى بلادهم ليتعودوا بها هذه الاخلاق
ويبعدوا عن التنعم وعادات اهل البلدان الردية
واذ قد عرفت هذه الطرق المحمودة في تاديب الاحداث
فقد عرفت اضدادها اعني ان من نشأ على خلاف هذه
المذاهب والتاديب لم يرج فلاحه ولا ينبغي ان يستعمل
باصلاحه وتقديمه فانه قد صار بمنزلة الخنزير الوحشي
الذي لا يطمع في رياضته فان نفسه العاقلة تصير خادمة

لنفسه البهيمية ولنفسه الغضبية فهي منهمكة في مطالبها
من النزوات والشهوات وكما لا سبيل الى رياضة سباع البهائم
الوحشية التي لا تقبل التاديب كذلك لا سبيل الى رياضة
من نشأ على هذه الطريقة واعتادها وامعن قليلا في السن
اللهم الا ان يكون في جميع احواله عالما بقبح سيرته ذاما لها
عاتبا على نفسه على الاقلاع والاناة فان مثل هذا الانسان
قد يرجى له النزوع من اخلاقه بالتدريج والرجوع الى الطريقة
المثلى بالتوبة وبمصاحبة الاخيار واهل الحكمة وبالاكباب
على التفلسف واذ قد ذكرنا الخلق المحمود وما ينبغي ان يوخذ
به الاحداث والصبيان فنحن واصفون جميع القوى التي
تحدث للحيوان اولا اولا الى ان ينتهي الى اقصى كمال الانسان
فانك شديد الحاجة الى معرفة ذلك ليبتدى على الترتيب الطبيعي
في تقويم واحد واحد منها فنقول ان الاجسام الطبيعية
كلها تشترك في الحد الذي يعمها ثم تتفاضل بقبول الاثار
الشريفة والصور التي تحدث فيها فان الجماد منها اذا قبل

صورة مقبولة عند الناس صار بها افضل من الطينة الاولى
التي لا تقبل تلك الصورة فاذا بلغ الى ان يقبل صورة النبات
صار بزيادة هذه الصورة ويعرف ذلك من حدها وهو
بذل ما لا ينبغي كما لا ينبغي فاذا التفضل غير خارج عن شرط
العدالة بل هو محتاط عليها ولذلك قيل ان المتفضل اشرف
من العادل فقد بان ان التفضل ليس غير العدالة بالذات
بل هو العدالة مع الاحتياط فيها وكانه مبالغة لا تخرجها
عن معناها لان هذه الهيئة النفسانية ليست غير تلك
الهيئة بل هي هي فاما الاطراف التي هي رذايل اعني الزيادة والنقصان
التي سبق القول فيها فهي كلها هيئات مذمومة غير الهيئات
المحمودة وحدود هذه الاشياء التي تحصل لك معانيها
ومشاركة بعضها لبعض ومباينة بعضها لبعض وايضا فان
الشريعة تامر بالعدالة امرا كليا وليست تنحط الى الجزئيات
واعني بذلك ان العدالة التي هي المساواة تكون مرة في باب الكم
ومرة في باب الكيف وفي ساير المقولات وبيان ذلك ان نسبة

الماء الى الهواء مثلا ليست يكون بالكمية بل بالكيفية ولو كان
بالكمية لوجب ان يكونا متساويين في المساحة ولو كانا كذلك
لتغالبا واحال احدهما الآخر الى ذاته وكذلك النار والهواء
ولو احالت هذه العناصر بعضها بعضا لفني العالم في ادنى مدة
ولكن البارى تقدس ذكره عدل بين هذه بالقوة فتقاومت
فليس يغلب احدها الاخر بالكلية وانما يحيل الجزء منها الجزء
الآخر في الاطراف اعني حيث يلتقي نهاياتها فاما كلياتها فلا تقدر
على كلياتها لان قويها متساوية متعادلة على غاية
السوية والتعادل بهذا النوع من العدل قال صلى الله عليه وآله وسلم
بالعدل قامت السموات والارض ولو رجح احدهما على الآخر
بزيادة يسيرة قوة لاحال الزايد الناقص وقوى عليه فبطل
العالم فسبحان القايم بالقسط لا اله الا هو فلما كانت الشريعة
تامر بالعدالة لم تامر بالتفضل الكل بل ندبت اليه ندبا ليستعمل
في الجزئيات التي لا يمكن ان يعين عليها لانها بلا نهاية
وجرت القول في العدالة الكلية لانها محصورة يمكن ان يعين عليها

فقد تبين

فقد تبين ايض مما قدمناه ان التفضل انما يكون في العدالة
التي تخص الانسان في نفسه اعني تسوية المعاملة اولا بينه
وبين غيره ثم الاستظهار فيه والاحتياط عليه بما يكون تفضلا
ولو كان حاكما بين قوم ولا نصيب له في تلك الحكومة لم يحركه
التفضل ولم يسعه الا العدل المحض والتسوية الصحيحة
بلا زيادة ولا نقصان وتبين ايضا ان الهيئة التي تصدر
عنها الافعال العادلة متى نسبت الى صاحبها سميت فضيلة
ومتى نسبت الى من يعامله بها سميت عدالة واذا اعتبرت
بذاتها سميت ملكة نفسانية فاستعمال المرء العاقل
العدل على نفسه اول ما يلزمه ويجب عليه وقد ذكرنا
فيما تقدم كيف يفعل ذلك وبينا كيف يعدل قواه الكثيرة
اذا هاج به بعضها واشرنا الى اجناس هذه القوى الكثيرة
وان بعضها يكون بالشهوات المختلفة وبعضها بطلب الكرامة
الكثيرة وانها اذا تغالبت وتهاجت حدث في الانسان
باضطرابها انواع الشر وجذبه كل واحدة منها الى ما يوافقها

وهكذا سبيل كل مركب من كثرة اذا لم يكن لها رئيس واحد
ينظمها ويوحدها وارسطوطاليس يشبه من كان كذلك
بمن يجذبه من جهتين فينقطع بينهما وينشق بنصفين
او من جهات كثيرة فيتقطع بحسب تلك الجهات وقواها
وليس ينظم هذه الكثرة التى ركب الانسان منها الا
الرئيس الواحد الموهوب له بالفطرة اعنى العقل الذى
يميز عن البهايم وهو خليفة الله عنده فان هذه القوى
كلها اذا سامها العقل اعتدلت وزال عنها سوء النظام
الذى يجذب من الكثرة وجميع ما ذكرناه من اصلاح الاخلاق
مبنى عليه فاذا تم للانسان ذلك اعنى ان يعدل على نفسه
واحرز هذه الفضيلة فقد لزمه ان يعدل على اصدقائه
واهله وعشيرته ثم يلزمه ان يستعمل ذلك فى الاباعد
ثم فى ساير الحيوان واذ قد صح ذلك وظهر ظهورا حسنا
فقد ظهر ظهورا ان شر الناس من جار على نفسه ثم على صديقه ثم
وعشيرته ثم على كافة الناس والحيوان لان العلم باحد

الضدين

الضدين هو العلم بالضد الاخر فخير الناس العادل وشرهم
الجاير كما قلنا وقد قال قوم ان نظام امر الموجودات
كلها وصلاح احوالها كلها متعلق بالمحبة وقالوا ان الانسان
انما اضطر الى اقتناء هذه الفضيلة اعنى الهيئة التى يصدر
عنها العدالة اعنى تعاطى المعاملات لما فاته شرف المحبة
ولو كان المتعاملون الاحبا لتناصفوا ولم يقع بينهم خلاف
وذلك ان الصديق يحب صديقه ويريد له ما يريد لنفسه
وليس يتم الثقة والتعاضد والتوازر الا بين المتحابين
فاذا تعاضدوا وجمعتهم المحبة وصلوا الى جميع المحبوبات
ولم يتعذر عليهم المطالب صعبة شديدة وح يتشوفون
الاراء الصايبة ويتعاونون العقول على استخراج الغوامض
من التدابير القويمة ويتقوون على نيل الخيرات كلها بالتعاضد
وارسطوطاليس احد من نصر هذا الراى وقواه وهولاء
القوم انما نظروا الى فضيلة الاتحاد التى تحصل بين الكثرة
ولعمرى انها اشرف غايات اهل المدينة وذلك انهم اذا تحابوا

لصاحبه مثل ما يريد لنفسه
فتصير القوى الكثيرة واحدة
ولم يتعذر على احد منهم ؟

تواصلوا واراد كل واحد منهم راى صحيح ولا عمل صواب
ويكون مثلهم في جميع ما يحاولونه مثل ما يريد تحريك
ثقل عظيم بنفسه فلا يطيق ذلك فان استعان بقوة غيره حركه
ومدبر المدينة انما يقصد بجميع تدابيره ايقاع المودات
بين اهلها واذا تم له هذا خاصة فقد تم له جميع الخيرات
التي يتعذر عليه وحده وعلى افراد اهل مدينته و ؟
يغلب اقرانه ويعمر بلدانه ويعيش هو ورعيته مغبوطين
ولكن هذا التأحد المطلوب المرغوب فيه لا يتم الا بالآراء
الصحيحة التي ترجى الاتفاق من العقول السليمة عليها والاعتقادات
القوية التي لا تحصل بالديانات التي يقصد بها وجه الله
عز وجل واصناف المحبات كثيرة وان كانت ترتقي كلها
الى وجه واحد وسنقول فيها بمعونة الله ما يسنح فيما يتلو
هذه المقالة تمت المقالة الرابعة من تهذيب الاخلاق

المقالة الخامسة

قد سبق القول في حاجة بعض الناس
الى بعض وتبين ان كل واحد منهم يجد تمامه عند صاحبه

وان الضرورة

وان الضرورة داعية الى استعانة بعضهم ببعض لان الناس
مطبوعون على النقصانات ومضطرون الى تمامها
ولا سبيل لافرادهم والواحد فالواحد منهم الى تحصيل تمامه
بنفسه كما شرحناه فيما مضى فالحاجة صادقة والضرورة داعية
الى حال تجمع وتؤلف بين اشتات الاشخاص ليصيروا
بالاتفاق والائتلاف كالشخص الواحد الذي يجتمع اعضاؤه
كلها على الفعل الواحد النافع له وللمحبة انواع واسبابها
بعدد انواعها فاحد انواعها ما ينعقد سريعا وينحل سريعا
والثاني ما ينعقد سريعا وينحل بطيئا والثالث ما ينعقد
بطيئا وينحل سريعا والرابع ما ينعقد بطيئا وينحل بطيئا
وانما انقسمت الى هذه الانواع فقط لان مقاصد الناس
في مطالبهم وسيرهم ثلثة ويتركب منها رابع وهي اللذة
والخير والنافع والرابع هو المتركب منها واذا كانت هذه
غايات الناس في مقاصدهم فلا محالة انما هي اسباب المحبة
من عاون عليها وصار سببا للوصول اليها فاما المحبة التي

يكون سببها اللذة فهي التي ينعقد سريعا وينحل سريعا وذاك
ان اللذة سريعة التغير كما شرحنا امرها فيما تقدم واما المحبة
التي سببها الخير فهي التي ينعقد سريعا وينحل بطيئا واما المحبة
التي سببها النافع فهي التي ينعقد بطيئا وينحل سريعا واما
التي يتركب من هذه اذا كان فيها الخير فانها ينعقد بطيئا
وينحل سريعا وهذه المحبات كلها يحدث بين الناس خاصة
لانها يكون بارادة وروية ويكون فيها مجازاة ومكافاة
فاما التي يكون بين الحيوانات غير الناطقة الاحرى بها
ان يسمى الفا ويقع بين الاشكال منها خاصة واما التي
لا نفوس لها من الاحجار وامثالها فليس يوجد فيها الا الميل
الطبيعي الى مراكزها التي تخصها وقد يوجد ايضا بينها
منافرة ومشاكلة بحسب امزجتها الحادثة فيها من عناصرها
الاول وهذه الامزجة كثيرة واذا وقع فيها ما يتناسب نسبة
تاليفية او عددية او مساحية بينها ضرب من المشاكلة
واذا احدثت اضدادها وقعت بينها منافرة وتحدث لها

اشياء

اشياء يسمى خواص وهي افعال بديعة غريبة وهي التي تسمى
اسرار الطبايع ولا سيما في النسب التاليفية فانها اشرف
النسب بعد نسبة المساواة ولها اضداد اعني لهذه النسب
وهي مبينة مشروحة في صناعة الارثماطيقي ثم في صناعة
التاليف واما الامزجة التي بحسب هذه النسب والوقوف عليها
فهي خفية عنا وقد ادعى قوم الوصول اليها وليست يكون وعسر المقام
هذه الافعال والخواص التي تحدث بين الامزجة من النسب
المذكورة موجودة في العناصر انفسها والكلام فيها خارج
عن غرضنا وانما ذكرناها هاهنا لانها يشبه المشاكلات
والمسامرات التي بين الحيوان في الظاهر ولا يشبه التي
يحدث بين الناس بالارادة وهي التي يتكلم فيها ويقع
فيها مكافاة ومجازاة والصداقة نوع من المحبة الا
انها اخص منها وهي المودة بعينها وليس يمكن ان يقع
بين جماعة كثيرين كما يقع المحبة فاما العشق فهو افراط في
المحبة وهو اخص من المودة وذلك انه لا يمكن ان يقع

الا بين اثنين قط ولا يقع في النافع ولا في المركب من النافع
وغيره وانما يقع لمحب اللذة بافراط او لمحب الخير بافراط
واحدهما مذموم اعني اللذة والاخر محمود اعني الخير فالصداقة
بين الاحداث ومن كان في طباعهم انما تحدث لاجل اللذة
فهم يتصادقون سريعا ويتقاطعون سريعا وربما اتفق
ذلك بينهم في الزمان اليسير مرارا كثيرة وربما بقيت بقدر
ثقتهم ببقاء اللذة ومعاودتها حالا بعد حال فان انقطع
هذه الثقة بمعاودتها انقطعت الصداقة للوقت وفي الحال
والصداقة بين المشايخ ومن كان في طباعهم انما يقع
لمكان المنفعة فهم يتصادقون بسببها فاذا كانت المنافع
مشتركة بينهم وهي في الاكثر طويل المدة كانت صداقاتهم
باقية فحين ينقطع علاقة المنفعة المشتركة بينهم وينقطع
رجاؤهم منها ينقطع موداتهم والصداقة بين الاخيار
تكون لاجل الخير وسببها هو الخير ولما كان الخير شيئا ثابتا
غير متغير اللذات صارت مودات اصحابها باقية غير متغيرة

وايضا

وايضا فلما كان الانسان مركبا من طبايع متضادة
صار ميل كل واحد منها يخالف ميل الاخر واللذة التي
توافق احدهم تخالف لذة الاخر الذي يضاده فلا يخلص
له لذة غير مشوبة باذى ولما كان فيه ايضا جوهر اخر
بسيط الهي غير مخالط لشيء من الطبايع الاخر صارت له لذة
غير مشابهة لشيء من تلك اللذات وذلك انها بسيطة ايضا
والمحبة التي سببها هي اللذة هي التي تفرط حتى تصير عشقا تاما
خالصا شبيها بالوله وهي المحبة الالهية الموصوفة التي يدعيها
بعض المتالهين وهي التي يصفها الحكيم حكاية عن ابرقليطس
ان الاشياء المختلفة لا يتشاكل ولا يكون منها تاليف جيد
فاما الاشياء المتشاكلة فهي التي يسر بعضها ببعض ويشتاق
بعضها الى بعض فاقول ان الجواهر البسيطة اذا تشاكلت
واشتاق بعضها الى بعض تالفت صارت شيئا احدا
لا غيرية بينها اذ الغيرية انما يحدث من جهة الهيولى
فاما الاشياء ذوات الهيولى وهي الاجرام فلانها

وان اشتاقت بنوع من الشوق الى التألف فانها لا تتحد
ولا يمكن ذلك فيها وذلك انها يلتقى بنهاياتها وسطوحها
دون ذواتها وهذا الالتقاء سريعًا الانفصال اذ كان
التاحد فيها ممتنعا وانما يتاحد بنحو استطاعتها اعنى
بملاقات سطوحها فاذا الجوهر الالهى الذي في الانسان اذا
اذا صفا من كدورته التى حصلت فيه من ملابسة الطبيعة
ولم تجذبها انواع الشهوات واصناف محبات الكرامات
اشتاق الى شبهه وراى بعين عقله الخير الاول المحض الذى
لا تشوبه مادة فاسرع اليه وحينئذ يفيض نور ذلك الخير الاول
عليه فيلتذ به لذة لا يشبهها لذة ويصل الى معنى الاتحاد
الذى وصفناه استعمل الطبيعة البدنية ام لم يستعملها
الا انه بعد مفارقتها الطبيعة بالكلية احق بهذه الرتبة
العالية لانه ليس يصفو الصفاء التام الا بعد الحياة الدنيوية
ومن فضايل هذه المحبة الالهية انها لا يقبل النقصان
ولا يقدح فيها السعاية ولا يعترض عليها الملل ولا يكون

الا

الا بين الاخيار فقط فاما المحبات التى يكون بسبب المنفعة
واللذة فقد يكون بين الاخيار والاشرار الا انها ينقضى
وتتحلل مع تقضى النافع واللذيذ لانها عرضية وكثيرا ما
يحدث بالاجتماعات فى المواضع الغريبة الا انها تزول
بزوال المواضع كالسفينة وما جرى مجراها والسبب فى هذه المحبة
الانس وذلك ان الانسان انيس بالطبع وليس بوحشى ولا نفور
ومنه اشتق اسم الانسان فى اللغة العربية وقد تبين ذلك
فى صناعة النحو وليس كما يقول الشاعر وسميت انسانا لانك
ناسى فان هذا الشاعر ظن ان الانسان مشتق من النسيان
وهو غلط منه وينبغى ان نعلم ان هذا الانس الطبيعى فى الانسان
هو الذى ينبغى ان نحرص عليه ونكتسبه مع ابناء جنسنا حتى
لا يفوتنا بجهدنا واستطاعتنا فانه مبدا المحبات كلها
وانما وضع للناس بالشريعة وبالعادة الجميلة اتخاذ الدعوات
والاجتماع فى المآدب ليحصل لهم هذا الانس ولعل الشريعة
انما اوجبت على الناس ان يجتمعوا فى مساجدهم كل يوم خمس مرات

وفضلت صلوة الجماعة على صلوة الاحاد ليحصل لهم هذا
الانس الطبيعي الذي هو فيه بالقوة حتى يخرج الى الفعل ثم
يتأكد بالاعتقادات الصحيحة والمصالح التي يجمعهم وهذا
الاجتماع في كل يوم ليس يتعذر على اهل كل محلة وسكة والدليل
على ان غرض صاحب الشريعة ما ذكرناه انه اوجب على اهل المدينة
باسرهم ان يجتمعوا في كل اسبوع يوما بعينه في مسجد يسعهم
ليجتمع ايضا شمل المحال والسكك في كل اسبوع يوما بعينه
كما اجتمع شمل اهل الدور والمنازل في كل يوم ثم اوجب ان
يجتمع اهل المدينة مع اهل القرى واهل الرساتيق المتقاربين
في كل سنة مرتين في مصلى بارزين مصحيين ليسعهم المكان
ويتراءوا ويتجدد الانس بين كافتهم وتشملهم المحبة
الناظمة لهم ثم اوجب بعد ذلك ان يجتمعوا من البلدان في العمر كله
مرة واحدة في الموضع المقدس بمكة ولم يعين على وقت من العمر
مخصوص ليسع لهم الزمان وليجتمع اهل المدن المتباعدة
كما اجتمع اهل المدينة الواحدة ويصير حالهم في المحبة والانس وشمول

الخير

الخير والسعادة كحال المجتمعين في كل سنة وفي كل اسبوع
وفي كل يوم فيجتمعوا بذلك الانس الطبيعي الى الخيرات المشتركة
ويتجدد بينهم محبة الشريعة وليكبروا الله على ما هداهم
ويغتبطوا بالدين القيم الذي الفهم على تقوى الله وطاعته
والقيم بحفظ هذه السنة وغيرها من وظايف الشرع لا يزول
عن اوضاعها هو الامام وصناعته الملك والاوايل لا يسمون
بالملك الا من حرس الدين وقام بحفظ مراتبه واوامره ونواهيه
فاما من اعرض عن ذلك فيسمونه متغلبا ولا يؤهلونه
لاسم الملك وذلك ان الدين هو وضع الهي يسوق الناس
باختيارهم الى السعادة القصوى والملك هو حارس هذا
الوضع الالهي حافظ على الناس ما اخذوا وقال حكيم الفرس
وملكهم اردشير ان الدين والملك اخوان توأمان لا يتم احدهما
الا بالاخر فالدين اس والملك حارس وكل ما لا اس له فمهدوم
وكل ما لا حارس له فضايع ولذلك حكمنا على الحارس الذي نصب
للدين ان يتيقظ في موضعه ويحكم صناعته ولا يوثر امره

بالهوينى ولا يشتغل بلذة تخصه ولا يطلب الكرامة والغلبة
الا من وجهها فانه متى اغفل شيئا من حدوده دخل عليه
من هناك الخلل والوهن وح تتبدل اوضاع الدين وتجد
الناس خصة في شهواتهم ويكثر من يساعدهم فينقلب
هيئة السعادة الى ضدها ويحدث بينهم الاختلاف والتباغض
فاداهم ذلك الى الشتات والفرقة وبطل الغرض الشريف
وانتقض النظام الذي طلبه صاحب الشرع بالاوضاع الالهية
فاحتيج ح الى تجديد الامر واستيناف التدبير وطلب الامام
الحق والملك العادل ونعود الى ذكر اجناس المحبات واسبابها
فنقول ان هذه الاسباب كلها ما خلا المحبة الالهية اذا كانت
مشتركة بين المتحابين وواحدا بعينه جاز في السببين
ان ينعقدا معا وينحلا جميعا وجاز ايضا ان يبقى احدهما
وينحل الاخر مثال ذلك ان اللذة المشتركة بين الرجل والمراة هي
سبب المحبة بينهما فقد يجوز ان يجتمع المحبتان لان السبب
واحد وهو اللذة وقد يجوز ان ينقطع احدهما ويبقى الاخر

وذلك

وذلك ان اللذة يتغير ولا يكاد يثبت كما تقدم وصفها
وقد يجوز ان يتغير سبب احد الحبيبين ويثبت الاخر
وايضا فان بين الرجل وبين زوجته خيرات مشتركة ومنافع
مختلطة وبها يتعاونان عليها اعني الخيرات الخارجة عنها
وهي الاسباب التي يعمر بها المنزل فالمراة ينتظر من زوجها
تلك الخيرات لانه هو الذي يكتسبها ويحضرها فاما الرجل
فانه ينتظر من زوجته ضبط تلك الخيرات لانها هي التي تحفظها
وتدبرها ليتثمر ولا يضيع فمتى قصر احدهما اختلفت المحبة
وحدثت الشكايات ولا تزال كذلك الى ان ينقطع او يبقى
مع الشكايات والملامة وكذلك حال المنفعة المشتركة بين
ساير الناس اذا كانت واحدة بعينها فاما المحبات
المختلفة التي اسبابها مختلفة فهي اولى بسرعة التحلل ومثال
ذلك ان يكون محبة احد المتحابين لاجل المنفعة ومحبة الاخر
لاجل اللذة كما يعرض ذلك في المتعاشرين على ان احدهما
مغن والاخر مستمع فان المغني منهما يحب المستمع لاجل المنفعة

والمستمع منهما يحب المغني لاجل اللذة وكما يعرض ايضا في العاشق
والمعشوق اللذين احديهما يلتذ بالنظر والآخر ينتظر المنفعة
وهذا الصنف من المحبة يعرض فيها ابدا التشاكي والتظلم
وذلك ان طالب اللذة يتعجل مطلوبه وطالب المنفعة يتأخر
عنه مطلوبه وليس يكاد يعتدل الامر بينهما ولذلك ترى العاشق
يشكو معشوقه ويتظلم منه وهو بالحقيقة ظالم ينبغي ان يشكى
لانه يتعجل لذته بالنظر ولا يرى المكافات بما يستحق صاحبه
والمحبة اللوامة كثيرة الانواع الا ان الاصل فيهما ما ذكرت
ويوشك ان يكون المحبة بين الرئيس والمرؤس وبين الغني
والفقير يعرض لها اللوم لاجل اختلاف الاسباب ولان
كل واحد ينتظر من المكافاة عند الآخر ما لا يجده عنده فيقع
فساد في النيات بينهما ثم استبطاء ثم ملامات ويزيل ذلك
طلب العدالة ورضى كل واحد بما يستحقه من الآخر وبذل
كل واحد للآخر العدل المبسوط بينهما والمماليك خاصة لا يرضيهم
من مواليهم الا الزيادة الكثيرة في الاستحقاق ولذلك الموالي

يستنبطون

يستنبطون العبيد في الخدمة والشفقة والنصيحة وفي جميع ذلك
يقع اللوم وفساد النية فهذه المحبة اللوامة لا تكاد
يخلو منها الا على شريطة العدل وطلب الوسط من الاستحقاق
والرضى به وهو صعب فاما محبة الاخيار بعضهم بعضا فانها
لا يكون للذة خارجة ولا المنفعة بل للمناسبة الجوهرية بينهما
وهي قصد الخير والتماس الفضيلة فاذا احب احدهم لهذه
المناسبة لم يكن بينهم مخالفة ولا منازعة ونصح بعضهم بعضا
وتلاقوا بالعدالة والتساوي في ارادة الخير هو الذي يوحد
كثرتهم ولهذا احد الصديق بانه آخر هو انت الا انه غيرك
بالشخص ولهذا صار عزيز الوجود ولم يتفق صداقة الا احداث
والعوام ومن ليس بحكيم لان هؤلاء يحبون ويصادقون
لاجل اللذة او المنفعة ولا يعرفون الخير بالحقيقة ولا اغراضهم
صحيحة واما السلاطين فانهم يظهرون الصداقة على انهم
متفضلون ومحسنون الى من يصادقونهم فليس يخلون
تحت الحد الذي ذكرناه وفي صداقتهم زيادة ونقصان

والمساوات عزيز الوجود عندهم وكذلك الحال في محبة الوالد
للولد لان انواع هذه المحبة مختلفة كما قلنا الا ان محبة الوالد
للولد والولد للوالد وان كان بينهما اختلاف ما من وجه
فان بينهما اتفاقا ذاتيا واعنى بالذاتي ههنا ان الوالد
يرى في ولده هو هو وانه نسخ صورته التي تخصه
من الانسانية في شخص ولده نسخا طبيعيا ونقل ذاته
الى ذاته نقلا حقيقيا وحق له ان يرى ذلك لان التدبير
الالهية بالسياسة الطبيعية التي هي سياسة الله عز وجل هو
الذي عاون الانسان على انشاء الولد وجعله السبب الثاني
في ايجاده ونقل صورته الانسانية اليه ولذلك يحب الوالد
لولده جميع ما يحبه لنفسه ويسعى في تاديبه وتكميله بكل
ما فاته في نفسه طول عمره ولا يشق عليه ان يقال ان ولدك
افضل منك لانه يرى هو هو وكان الانسان اذا تزيد
في نفسه حالا فحالا وترقى في الفضيلة درجة درجة لا يشق
عليه ان يقال له انك الآن افضل مما كنت بل يسره كذلك يكون

حال اذا تخيله في ولده مثل ذلك ثم يفضل ايضا محبة الوالد
على محبة الولد بانه الفاعل وبانه يعرفه منذ اول كونه ويستبشر
به وهو جنين ثم تزداد محبته له مع التربية والتبين وتتاكد
سروره وتاميله ويحدث له اليقين بانه باق به صورة
وان فنى بجسمه مادة فان هذه المعاني الجلية عند اهل
العلم تتراءى للعام كانها من وراء ستر فاما محبة الولد
للوالد بانها ينقص عن هذه الرتبة بان الولد مفعول وبانه
لا يعرف ذاته ولا فاعل ذاته الا بعد زمان طويل
وبعد ان يستثبت اياه حسا وينتفع به دهرا ثم يعقل
بعد ذلك امره بالصحة وعلى مقدار عقله واستبصاره
في الامور يكون تعظيمه لوالديه ومحبته لهما ولهذه
العلة وصى الله عز وجل الولد بوالديه ولم يوص الوالد
بولده فاما محبة الاخوة بعضها بعضا فلاجل ان سبب
كونهم ونسبهم واحد بعينه ويجب ان يكون نسبة الملك
الى رعيته ونسبة الرعية بعضهم الى البعض نسبة اخوية حتى

تكون الرياسات محفوظة على شرايطها الصحيحة وذلك
ان مراعاة الملك لرعيته هي مراعات الاب لولده ومعاملته
اياهم تلك المعاملة وقد كنا اشرنا الى ذلك وسنزيده بيانا
اذا صرنا الى ذكر سياسة الملك في كتاب اخر وعنايته برعيته
يجب ان يكون عناية الاب باولاده شفقة وتحننا
وتعهدا خلافة لصاحب الشريعة عليه السلام بل لمشرع الشريعة
تعالى ذكره في الرافة والرحمة وطلب المصالح لهم ودفع المكاره
عنهم وحفظ النظام فيهم وما يحمله في كل ما يجلب الخير ويمنع
الشر فانه عند ذلك تحب رعيته محبة الاولاد للاب الشفيق
ويحدث بينهما تلك النسبة وانما تختلف هذه المحبات
بالتفاضل الذي يكون لعظم المنافع فيجب ان يكرم الاب
كرامة ابوية ويكرم السلطان كرامة سلطانية ويكرم الناس
بعضهم كرامة اخوية خاصة به واستحقاق واجب له
فاذا لم يحفظ بالعدالة زاد ونقص وعرض لها الفساد فانتقلت
الرياسات وانعكست الامور فعرض لرياسة الملك ان

ينتقل

ينتقل الى رياسة التغلب وتبع ذلك ان ينتقل محبة الرعية
الى البغض وعرض الرياسات من دونه مثل ذلك
فيصير محبة الاخيار الى تباغض الاشرار وتعود الالفة
نفارا والتواد نفاقا ويطلب كل احد لنفسه ما يظنه
خيرا له وان اضر بغيره وتبطل الصداقات والخير المشترك
بين الناس ويؤول الامر الى الهرج الذي هو ضد النظام
الذي رتبه الله لخلقه ورسمه بالشريعة واوجبه بالحكمة
البالغة فاما المحبة التي لا تشوبها الانفعالات ولا تطرأ
عليها الافات وهي محبة العبد لخالقه عز وجل فانها انما
تخلص للعالم الرباني وحده خاصة ولا سبيل لغيره اليها
الا بالدعوى الكاذبة وكيف يجد الانسان السبيل الى معرفة
من لا يعرفه ولا يعرف ضروب انعامه الدارة عليه ووجوه
احسانه المتصلة به في بدنه ونفسه اللهم الا ان يتصور
في نفسه صنما ويظنه خالقه عز وجل فيحبه ويعبده فان
اكثر الناس كما قال الله عز وجل وما يؤمن اكثرهم بالله الا

وهم مشركون ولعمري ان العامة تدعي المعرفة والمحبة ولكنهم
يتصورون شيخا وشخصا فيكون محبتهم وعبادتهم اياه
من دون الله سبحانه وتعالى وهذا هو الضلال البعيد
ومدعو هذه المحبة لا محالة سيتصل بها الطاعة والتعظم
ويتلوها ويقرب منها محبة الوالدين واكرامهما وطاعتهما
وليس يرتقي الى مرتبتهما شيء من المحبات الاخر الا محبة الحكما
عند تلاميذهم فانها متوسطة بين المحبة الاولى والمحبة
الثانية وذلك ان المحبة الاولى لا يبلغها شيء من المحبات
كما ان اسبابها لا يشبهها شيء من الاسباب والنعم التي تاتي
من قبلها لا يشبهها شيء من النعم واما المحبة الاخرى فهي
يقرب منها لان سببها هو السبب الثاني في وجودنا الحسي اعني
ابداننا وكوننا فاما المحبة الاخرى اعني محبة الحكما فهي اشرف
واكرم من محبة الوالدين لاجل ان تربيتهم هي لنفوسنا وهم
الاسباب في وجودنا الحقيقي وبهم وصلنا الى السعادة التامة
فليس يبلغ احد جزاءاً ما يستحق الاول ولا مكافاته ولا ما يستاهله

الثاني

الثاني وان هو اجتهد وبالغ ولا يودي حقوقهما ابدا وان
خدم باقصى طاقته وغاية وسعه فاما محبة طالب الحكمة
للحكيم والتلميذ الصالح للمعلم الخير فانها من جنس المحبة
الاولى وفي طريقها وذاك لاجل الخير العظيم الذي يشرف عليه
ويصل اليه وللرجاء الكريم الذي لا يتحقق الا بعنايته
ولا يتم الا بمطالعته ولانه والد روحاني ورب بشري
واحسانه احسان الهي وذاك انه يربيه بالفضيلة
التامة ويغذوه بالحكمة البالغة ويسوقه الى الحيوة الابدية
في النعيم السرمدي واذا كان هو السبب في وجودنا العقلي
وهو المربي لنفوسنا الروحانية وبحسب فضل النفس على البدن
يجب ان يتفضل المنعم بهذا على المنعم بذاك وبقدر فضل
النفس على البدن يكون فضل التربية على التربية
فيحق ما يجب التلميذ معلم الحكمة محبة خالصة شبيهة
بالمحبة الاولى واذا كانت هذه المحبة من جنس تلك المحبة
فالطاعة له من جنس تلك الطاعة ولما كان سبب هاتين النعمتين جميعا

ومعرضهما لنا وسائقنا اليهما والى جميع النعم هو السبب الاول
الذي هو سبب الخيرات كلها وجب ان يكون محبتنا له
في اعلى مراتب المحبات وكذلك طاعتنا له وتمجيدنا اياه ويجب
على من بلغ هذه المنزلة من الاخلاق ان يعرف مراتب المحبات
وما يستحقه كل واحد من صاحبه حتى لا يبذل كرامة
الوالد للرئيس الاجنبي ولا كرامة الصديق للسلطان ولا كرامة
الوالد للعشير ولا كرامة الاب للام فان لكل واحد من هؤلاء
واشباههم صنفا من الكرامة وحقا من الجزاء ومتى خلط فيه
اضطرب وفسد تربيته وتحدث الملامات واذا وفى
كل واحد منهم حقه وقسط من الخدمة والمحبة والنصيحة
كان عادلا واوجبت محبته له وعدالته فيها محبة على صاحبه
ومعامله وكذلك يجري الامر في موانسة الاصحاب والخلطاء
والمتعاشرين في توفيه حقوقهم واعطائهم ما هو خاص بهم
ومن غش المحبة والصداقة كان اسوء حالا ممن غش الدراهم
والدينار فان الحكيم ذكر ان المحبة المغشوشة تنحل سريعا
وتفسد

ويفسد وشيكا كما ان الدرهم والدينار اذا كانا مغشوشين
فسدا سريعا وهذا واجب في جميع انواع المحبات ولذلك
يتعاطى العاقل ابدا نمطا واحدا او يلزم مذهبا واحدا
في ارادة الخير ويفعل جميع ما يفعله من اجل ذاته ويرى
خيره عند غيره كما يراه عند نفسه فاما صديقه فقد قلنا
انه هو هو الا انه غيره بالشخص واما سائر مخالطيه ومعارفه
فانه يسلك بهم مسلك اصدقائه وكانه مجتهد في ان يبلغ
بهم وفيهم منازل الاصدقاء بالحقيقة وان كان لا يمكن ذلك
في جميعهم فهذه سيرة الرجل الخير في نفسه وفي رؤسائه واهله
وولده وعشيرته واصدقائه وسلطانه فاما الشرير فانه
يهرب من هذه السيرة وينفر منها لرداءة الهيئة التي حصلت
له ولمحبة البطالة والتكاسل عن معرفة الخير والتمييز بينه وبين
الشر وبين ما هو مظنون عنده خيرا وليس بخير ومن كان
على هذه الحال من الشر ورداءة الهيئة كانت افعاله كلها
رديئة وذاته رديا ومن كانت ذاته ردية هرب

من ذاته لان الرداءة مهروب منها واضطر الى مصاحبة قوم
يناسبونه ليفني عمره معهم ويشتغل بهم عن ذاته وما يجده فيها ليشغي
من الاضطراب والقلق وذاك ان هولاء الاشرار اذا خلوا
بانفسهم ذكروا افعالهم الرديه وهاجت بهم قوة المتضادة
التي تدعوهم الى ارتكاب الشرور المتضادة فيالمون من ذواتهم
وتتساغب نفوسهم انواع الشغب وتجريهم القوى التي
فيهم وهي التي لم يروضها بالادب الحقيقي الى جهات مختلفة
من اللذات الرديئة وطلب الكرامات التي لا يستحقونها
والشهوات الرديئة المردية التي تهلكهم سريعا فاذا اجتذبتهم
هذه القوى الى جهات مختلفة احدثت فيهم الاما كثيرة لانه
ليس يمكن ان يفرح ويحزن معا ولا يرضى ويسخط في حال واحدة
ولا يتم له ان ينجذب الى جهات مختلفة بحركة واحدة
ولا يستطيع ان يولف بين الاضداد حتى تجتمع له فهو من
شقائه يهرب من ذاته لانها رديئة فاسدة متالمة
كثيرة الشغب عليه ويلتمس لعشرته ومخالطته من هو مثله

او اسوا حالا

او اسوا حالا منه فيجد في الوقت راحة به وسكونا
اليه لاجل المشاكلة ثم يعود بعد قليل وبالا عليه وزيادة
في خباله وفساده فالمه به ويهرب منه فليس له محب
ولا ذاته ولا له نصيح ولا نفسه ولا يحصل الا على الندامة
ولا يرجع الا على الشقوة فاما الرجل الخير الفاضل فان
سيرته جيدة ومحبوبة فهو يحب ذاته وافعاله ويسر
بنفسه ويسر به الصاغرة ويختاره كل انسان مواصلته
ومصادقته فهو صديق نفسه والناس اصدقاوه وليس
يضاده الا الشرير فقط ويعرض لمن هذه سيرته ان يحسن
الى غيره وبغير قصد وذلك ان افعاله اللذيذة محبوبة واللذيذ
المحبوب مختار فيكثر المتقبلون له والمحتفون به و
الاخذون عنه وهذا هو الاحسان الذي يبقى ولا ينقطع
ويتزيد على الايام ولا ينقص فاما الاحسان العرضي الذي
ليس بخلقي ولا هو سيرة لصاحبه فانه ينقطع ويلحق فيه
اللوم والمحبة التي يعرض منه تلحق بالمحبات اللوامة ولذلك

يعصى صاحبه بتربيته فيقال رب الضيعة اصعب
من ابتدايها والمحبة التي تحدث بين المحسن والمحسن اليه
يكون فيها زيادة ونقصان اعني ان محبة المحسن للمحسن اليه
اشد من محبة المحسن اليه للمحسن واستدل ارسطوطاليس على ذلك
بان المقرض وصانع المعروف يهتم كل واحد منهما لمن اقرضه
واصطنع المعروف عنده ويتعاهد انهما يحبان سلامتهما
اما المقرض فربما اراد سلامة المقترض لمكان الاخذ لا لمكان
المحبة اعني انه يدعو له بالسلامة والبقاء وسبوغ النعمة
والكفاية من كل وجه ليصل الى حقه واما المقترض
فليس يعني كثير عناية بالمقرض له بهذه الدعوات واما
فاما مصطنع المعروف فانه بالحق الواجب يود الذي اصطنع
اليه معروفه وان لم ينتظر منه منفعة وذاك ان كل صانع
فعل جيد محمود يحب مصنوعه فاذا كان المصنوع مستقيما
يجب ان يكون محبوبا في الغاية فقد تبين ان محبة المحسن
اشد من محبة المحسن اليه فاما المحسن اليه فشهوته للاحسان

اشد

اشد وازيد من شهوة المحسن وايضا فان المحبة المكتسبة
بالاحسان المرباة على طول الزمان يجري مجرى القنيات التي
يتعب بتحصيلها وما يكتسب منها على سبيل التعب والنصب تكون
المحبة له اشد والضن به اكثر ومن وصل الى المال بغير تعب
لم يكرب له ولم يشح عليه ويبذله في غير موضعه كما يفعل
الوراث ومن يجري مجراهم فاما من وصل اليه بتعب
وسافر في طلبه وشقي بجمعه فانه لا محالة يكون شديد الضن
به والمحبة له ولهذه العلة صارت الام اكثر محبة للولد
من الاب ويعرض لها من الحنين والولد اضعاف ما يعرض
للاب وبهذا النوع من المحبة يحب الشاعر شعره ويحبه
اكثر من محبة غيره وكل فاعل فعلا يتعب به فهو يحب فعله
ذاك وايضا فان المنفعل لا يتعب كتعب الفاعل والاخذ منفعل
والمعطي فاعل فمن هذه الوجوه يتبين ان مصطنع المعروف
يحب من احسن اليه حبا شديدا ومن الناس من يصطنع
المعروف لاجل خير نفسه ومنهم من يصنعه لاجل الذكر الجميل

ومنهم من يصنعه رياء فقط ومن البين ان اعلاهم مرتبة
من صنعه لذاته اعني لذات الخير وصاحب هذه المرتبة
لا يعدم الذكر الجميل والثناء الباقي ومحبة من لم يصنع المعروف
عنده وان لم يقصد ذلك بفعله ولا بنيته ولما حكمنا فيما تقدم
حكما مقبولا لا يرده احد وهو ان كل انسان يحب نفسه وكانت
هذه المحبة لا محالة تنقسم بالاقسام الثلثة التي ذكرناها
اعني اللذة والنافع والخير وجب من ذلك ان يكون من لا يميز
بين هذه الاقسام حتى يعرف الافضل فالافضل منها لا يدري
كيف يحسن الى نفسه التي هي محبوبته فيقع في ضروب من الخطاء
بجهله بالخير الحقيقي فلذلك صار بعض الناس يختار لنفسه سيرة اللذة
وبعضهم سيرة الكرامة لانهم لا يعرفون ما هو افضل منهما
فاما من عرف سيرة الخير وعلو مرتبته فهو لا محالة يختار لنفسه
افضل السير واكرم الخيرات فلا يؤثر اللذة البهيمية ولا اللذة الخارجة
عن نفسه فانها عرضية كلها ومستحيلة ومنحلة لكنه يختار لها
اتم الخيرات واعلاها واعظمها وهو الخير الذي لها بالذات اعني

الذي ليس

الذي ليس بخارج عنها وهو الذي يناسب الجزء الالهي
ومن سار بهذه السيرة واختارها لنفسه فقد احسن اليها
وانزلها في الشرف الاعلى واهلها لقبول الفيض الالهي واللذة
الحقيقية التي لا تفارقه ابدا واذا كان بهذه الحال فهو
لا محالة يفعل ساير الخيرات الاخر وينفع غيره ببذل الاموال
والسماحة بجميع ما يتشاح الناس عليه ويخص اصدقاءه
من ذلك بكل ما يضيق عنه ذرع اصحاب السير الباقية فيصير معظما
عند كل احد ولا سيما عند صديقه وايضا فقد بينا فيما تقدم
ان الانسان مدني بالطبع وشرحنا معنى المدني فاذًا فالواجب
يكون تمام سعادته الانسانية عند اصدقائه ومن كان
تمامه عند غيره فمن المحال ان يصل مع الوحدة والتفرد
الى سعادته التامة فالسعيد اذًا من اكتسب الاصدقاء و
اجتهد في بذل الخيرات لهم ليكتسب بهم ما لا يقدر ان يكتسبه بذاته
فيلتذ بهم ايام حيوته ويلتذون ايضا به وقد شرحنا حال
هذه اللذة وانها باقية الهية غير منحلة ولا متغيرة ومولاً

في جملة الناس والجمهور منهم قليل جدا فاما اصحاب اللذات
البهيمية والنافعة فيها فكثير جدا وقد يكتفي من هؤلاء
بالقليل كالابازير في الطعام وكالملح خاصة فاما الصديق
الاول الذي وصفناه فلا يمكن ان يكون كثير العشرة ولا
محبوب بافراط وافراط المحبة لا يصح ولا يتم الا الواحد
فاما حسن العشرة وكرم اللقاء والسعي لكل احد بسيرة
الصديق الحقيقي مبذول لاجل طلب الفضيلة ولانا قد قلنا
فيما تقدم ان الرجل الخير الفاضل يسلك في عشرة معارفه
مسلك الصديق وان لم تتم له الصداقة الحقيقية فيهم
وارسطوطاليس يقول ان الانسان يحتاج الى الصديق
عند حسن الحال وعند سوء الحال الحاجة اليه في كلتي
الحالتين وذاك انه عند سوء الحال يحتاج الى المعونة الاصدقاء
وعند حسن الحال يحتاج الى المؤانسة والى من يحسن اليه
ولعمري ان الملك العظيم يحتاج الى من يصطنعه ويضع عنده
المعروف كما يحتاج المتوسطون الى امثالهم قال ومن اجل فضيلة

الصداقة

الصداقة يتشارك الناس بعضهم بعضا ويتعاشرون عشرة
جميلة ويداعب بعضهم بعضا ويجتمعون في الرياضات
والصيد والدعوات واما السقراطيس فانه قال بهذه
الالفاظ اني لاكثر التعجب ممن يعلم اولاده اخبار الملوك
ووقايع بعضهم ببعض وذكر الحروب والضغاين ومن
انتقم او توثب على صاحبه ولا يخطر بباله امر المودة
واحاديث الالفة وما يحصل من الخيرات العامة
لجميع الناس بالمحبة والانس وانه لن يستطيع احد من
الناس ان يعيش بغير المودة وان مالت اليه الدنيا بجميع
رغايبها فان ظن احد ان امر المودة صغيرة والصغير من
ظن ذلك وان قدر انه موجود يسير الخطب يدرك بالهوينى
فما اصعبه وما اعسر وجود صداقة يوثق بها عند الامتحان
ثم قال لكني اعتقد ان قدر المودة وخطرها عندي اعظم
من جميع كنوز قارون ومن ذخاير الملوك ومن جميع ما تنافس
اهل الارض من الجواهر وما تحويه الدنيا برا وبحرا وما يتقلبون

فيه من الحرث والبنا وساير الامتعة والاثاث ولا يعدل
جميع ذلك ما اخترته لنفسي من فضيلة المودة وذلك ان جميع
ما احصيته لا ينفع صاحبه اذا حلت به لوعة مصيبة
في صديقه ولا يقوم له جميع ما في الارض مقام صديق يثق
به في مهم يساعده عليه بسعادة عاجلة او آجلة تتم
له به فطوبى لمن اوتي هذه النعمة العظيمة وهو خلو من
السلطان واعظم الطوبى لمن اوتيه في سلطان وذلك
ان من باشر امور الرعية واراد ان يعرف احوالهم وينظر
في امورهم حق النظر لن يكفيه اذنان ولا عينان ولا قلب
واحد فان اخوانا ذوي ثقة وجدهم عيونا وآذانا وقلوبا
كانها له باجمعها فقربت عليه طرائقه واطلع من ادنى امره
على اقصاه ورأى الغايب بصورة فاني توجد هذه
الفضيلة الا عند صديق الصديق وكيف يطمع فيها
عند غير الرفيق الرفيق واذ قد عرفنا هذه النعمة الجليلة
الخطيرة فقد وجب علينا ان ينظر كيف نقبلها ومن اين

نطلبها

نطلبها واذا حصلت لنا كيف نحتفظ بها لئلا نصاب
فيها بما اصاب الرجل الذي ضرب به المثل حين طلب
شاة سمينة فوجدها وارمة فاغتر بها وظن الورم
سمنا فاخذه الشاعر فقال شعر اعيذها نظرات منك صادقة
ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورم لا سيما وقد علمنا ان الانسان
من بين الحيوان يتصنع حتى يظهر للناس منه ما لا حقيقة
له فيبذل ماله وهو بخيل ليقال هو جواد ويقدم في بعض
المواطن على الاهوال ليقال هو شجاع واما ساير الحيوان
فان اخلاقها ظاهرة للناس من اول الامر لا يتصنع فيها
وكذلك يكون حال من لا يعرف الحشايش والنبات فانها تشتبه
في عينه حتى ربما تناول منها شيئا وهو يظنه حلوا فاذا
تطعمه وجده مرا او ربما ظنه غذاء فيكون سما فينبغي
ان نحذر ركوب الخطر في تحصيل هذه النعمة الجليلة حتى
لا نقع في مودة المموهين الخداعين الذين يتصورون
لنا بصورة الفضلاء الاخيار فاذا حصلوا تاني شباكهم

افرسونا كالفرس الشباع اكيلها والطريق الى السلامة
من هذا الخطر بحسب ما اخذناه عن ارسطاطيس اذا اردنا
ان نستفيد صديقا ان نسأل عنه كيف كان في صباه مع والديه
ومع اخوته وعشيرته فان كان صالحاً معهم فارج الصلاح
والا فابعد منه واياك واياه قال ثم اعرف بعد ذلك
سيرته مع اصدقائه قبلك فاضفها الى سيرته مع اخوته
وابائه ثم تتبع امره في شكر من يجب عليه شكرها وكفره
النعمة ولست اعني بالشكر المكافاة التي ربما عجز عنها بالفعل
ولكن ربما عطل نيته في الشكر فلا يكافى بما يستطيع وبما يقدر
عليه ويعظم الجميل الذي يسدى اليه ويراه حقا لازما او
يتكاسل عن شكره باللسان وليس احد يتعذر عليه ذكر النعمة
التي يولاها والثناء على صاحبه والاعتداد له بها وليس شيء
اشد احتياجا للنعمة من الكفر وحسبك ما اعده الله
لكافر نعمته من النقم مع تعاليه عن الاستضرار بالكفر
ولا شي اجلب للنعم ولا اشد تثبيتا لها من الشكر فتعرف هذا
الخلق

الخلق ممن تريد مواخاته واحذر ان يبتلي بالكفر للنعم
لاياديك الاخوان والسلطان ثم انظر الى ميله الى الراحات
وتباطيه عن الحركة التي فيها ادنى نصب فان هذا خلق
ردي يتبعه الميل الى اللذات فيكون سببا للتقاعد
عما يجب عليه من الحقوق ثم انظر نظرا شافيا في محبته للذهب
والفضة واستكثاره بجمعهما وحرصه عليهما فان كثيرا من
المتعاشرين يتظاهرون بالمحبة ويتهادون النصيحة
فاذا وقعت بينهم معاملة في احد هذين الجوهرين هر بعضهم
على بعض هرير الكلاب وخرجوا الى ضروب العداوات
ثم انظر في محبته للرياسة والتفريط فان من احب الغلبة
والتراءس وان يفرط لا ينصفك في المودة ولا يرضى منك
بمثل ما يعطيك ويحمل الخيلاء والتيه على الاستهانة باصدقائه
وطلب الترفع عليهم وليس يتم مع ذلك مودة ولا بد من
ان تؤول الحال به معه الى العداوات والاحقاد والاضغان
الكثيرة ثم انظر هل هو ممن يستهتر بالغناء واللهو وضروب

اللهو واللعب وسماع الملحون والمضاحيك فان كان كذلك فما
اشغله عن مساعدات اخوانه وعن مواساتهم وما اشد
هربه عن مكافاة باحسان واحتمال النصب ودخول تحت جميل
فيه مشقة فان كان بريا من هذه الخلال فليحتفظ به
وليرغب فيه وليكتف بواحد ان وجد فان الكمال عزيز وايضا فان
من كثر اصدقاؤه لم يف بحقوقهم واضطر الى الاغضاء عن
بعض ما يجب عليه والتقصير في بعضه وربما ترادفت عليه احوال
متضادة اعني ان تدعوه مساعدة صديق ان يسر بسروره
ومساعدة ان يغتم بغمه وان يسعى بسعي واحد ويقعد بقعود
اخر مع احوال اخر تشبه هذه كثيرة مختلفة ولا ينبغي ان يحملك
ما حصلته عليه من طلب الفضايل فيمن تصادقه على تتبع
صغار عيوبه فتيئس من ذلك الى ان يسلم لك احد وتبقى خلوا
من الصديق بل يجب ان تغضي عن المعايب اليسيرة التي لا يسلم
من مثلها البشر وتنظر ما تجده في نفسك من عيب فتحتمل مثله
من غيرك واحذر عداوة من صادقته او خالطته مخالطة

الصديق

الصديق واسمع قول الشاعر عدوك من صديقك مستفاد
فلا تستكثرن من الصحاب فان الداء اكثر ما تراه يحول
عن الطعام او الشراب فلذلك يجب عليك متى حصل لك صديق
ان تكثر مراعاته وتبالغ في تفقده ولا تستهين باليسير من
حقه عند مهم يعرض له او حادث يحدث به فاما في اوقات
الرخا فينبغي ان تتلقاه بالوجه الطلق والخلق الرحب
وان يظهر له في عينك وحركتك وهشاشتك وارتياحك عند
مشاهدته اياك ما يزداد به في كل يوم وكل حال ثقة
بمودتك وسكونا الى عينك ويرى السرور في جميع اعضائك التي
يظهر السرور فيها اذا لقيك فان التحفي الشديد عند طلعة الصديق
لا يخفى وسرور الشكل بالشكل امر غير مشكل ثم ينبغي ان يفعل مثل
ذلك بمن تعلم انه يوثره ويحبه من صديق او ولد او تابع
او حاشية ويثني عليه وعليهم من غير اسراف يخرج بك الى
الملق الذي تمقت عليه ويظهر منك تكلف فيه وانما يتم ذلك
اذا توخيت الصدق في كل ما يثني به عليه والزم هذه الطريقة

حتى لا يقع منك توان فيها بوجه من الوجوه وفي حال من الاحوال
فان ذلك يجلب المحبة الخالصة ويكسب الثقة التامة ويفيدك
محبة الغربا ومن لا معرفة لك به وكما ان الحمام اذا الف بيوتنا
وانس بمجالسنا وطاف بنا جلب لنا اشكاله وامثاله فكذلك حال
الانسان اذا عرفنا واختلط بنا اختلاط الراغب فينا الانس
بنا بل يزيد على الحيوان غير الناطق بحسن الوصف وجميل الثناء
ونشر المحاسن واعلم ان مشاركة الصديق في السراء اذا كنت
فيها وان كانت واجبة عليك حتى لا تستاثر بها ولا تختص بشي
منها فان مشاركته في الضراء اذا لحقته اوجب وموقعها
عنده اعظم فانظر عند ذلك ان اصابته نكبة او لحقته مصيبة
او عثرة الدهر كيف يكون مواساتك له بنفسك ومالك وكيف
يظهر له بفقدك ومراعاتك ولا تنتظر به ان يسالك تصريحا او
تعريضا بل اطلع على قلبه واسبق الى حاجة نفسه وشاركه في
مضض ما لحقه وان بلغت مرتبة من السلطان والغنى فاغمس
اخوانك فيها من غير امتنان ولا تطاول وان رايت من بعضهم

بلو اعنك

بلوا عنك او نقصانا مما عهدت فداخله زيادة مداخلة
واختلط به واجتذبه اليك فانك ان انفت من ذلك او تداخلك
شي من الكبر والصلف عليهم انتقض حبل المودة وانتكثت
قوته ومع ذلك فلست تامن ان تزول عنك وينحى منهم
وتضطر الى قطيعتهم حتى لا تنظر اليهم ثم حافظ على هذه
الشرايط بالمداومة عليها لتبقى المحبة على حالة واحدة
وليس هذا الشرط خاصا بالمودة بل هو مطرد في كل ما يحصل
اعني ان مركوبك وملبوسك ومنزلك متى لم تراعها مراعاة
متصلة فسدت وانتقضت فاذا كانت صورة حايطك
وسطوحك كذلك ومتى غفلت او توانيت لم تامن نقوضه
وتهدمه فكيف ترى ان تجفو من ترجوه في كل خير وينتظر
مشاركته في السراء والضراء ومع ذلك فان ضرتك تختص
بمنفعة واحدة فاما صديقك فوجوه الضرر التي تدخل عليك
بجفايه وانتقاص مودته كثيرة وذلك انه ينقلب عدوا
ويتحول منافعه مضارا فلا تامن غوايله وعداوته مع عدمك

الرغايب والمنافع به وينقطع رجاوك فيما لا تجد له خلفا
ولا يستفيد عنه بدلا ولا يسد مسده شيء واذا رعيت
شروطه وحافظت عليها بالمداومة امنت جميع ذلك ثم حذر
المراء معه خاصة وان كان واجبا ان تحذره مع كل احد
فان مماراة الصديق يقتلع المودة من اصلها لانها سبب التباين
والتباين سبب كل شر وهو الذي هربنا منه الى ضده وفتحنا
اثره واخترنا عليه الالفة التي طلبناها وانبنينا عليها
ان الله عز وعلا دعا اليها بالشريعة القويمة والى الاعرف
من يوثر المرا ويزعم انه يقدح خاطره ويشحذ ذهنه
ويثير شكوكه فهو يتعمد في المحافل التي تجمع روساء اهل النظر
ومتعاطي العلوم مماراة صديقه ويخرج في كلامه معه الى
الفاظ جهال العامة وسقاطهم ليزيد في تخجيل صديقه
وليظهر للحاضرين انقطاعه وتبلّجه وليس يفعل ذلك عند
خلوته به ومذاكرته له وانما يفعله حيث يظن به انه اذا
دق نظرا واحضر حجة واعذر علما واحد قريحة فما كنت

اشهد

اشهد الا باهل البغي وجبابرة اصحاب الاموال و المتشبهين
بهم من اهل البذخ فان هولاء يستحقر بعضهم بعضا ولا يزال
يصغر بصاحبه ويزري على مروته ويتطلب عيوبه
ويتتبع عثراته ويبالغ كل واحد فيما يقدر عليه من مساءة
صاحبه حتى يتادى بهم الحال الى العداوة التامة الى يكون
معها السعاية وازالة النعم ويجاوز ذلك الى سفك الدم
وانواع الشرور فكيف يثبت مع المراء محبة او ترجى معها الفة
ثم احذر في صديقك ان كان متحققا بعلم او متحليا بادب
ان يبخل عليه بذلك الفن او يرى قبلك انك تحب الاستبداد
دونه والاستيثار عليه فان اهل العلم لا يرى بعضهم في بعض
ما يراه اهل الدنيا بينهم وذلك ان متاع الدنيا قليل فاذا تزاحم
عليه قوم ثلم بعضهم حال بعض ونقص حظ كل واحد من
حظ الاخر فاما العلم فانه بالضد وليس ينقص احدا
ما ياخذه من غيره منه بل يزكو على النفقة ويربو مع الصدقة
ويزيد على الانفاق وكثرة الخرج فاذا بخل صاحب علم بعلم

فانما ذلك لاحوال فيه كلها قبيحة وهي انه اما ان يكون قليل
البضاعة منه فهو يخاف ان يفنى ما عنده او يرد عليه
ما لا يعرفه فيزول تشوقه عند الجهال واما ان يكون مكتسبا
به فهو يخشى ان يضيق مكسبه وينقص حظه منه واما ان يكون
حسودا فالحسود بعيد من كل فضيلة لا يود احدا ولا يوده
احد واني لاعرف من لا يرضى بان يبخل بعلم نفسه حتى يبخل
بعلم غيره ويكثر عتبه وتسخطه على من يفيد غيره من التلامذة
المستحقين لفوائد العلم وما اكثر ما يتوصل الى احد الكتب المؤلفة
من اصحابها ثم يمنعهم منها وهذا خلق لا يبقى معه مودة
بل يكسب صاحبه عداوات لا يحتسبها ويحسم اطماع اصدقائه
من صداقته ثم احذر ان تبسط اصحابك ومن يخلو بك من
اتباعك او يحتمل احد منهم على ذكر شيء من اسباب صديقك
بغير الجميل فضلا عن ذكره في نفسه ولا ترخص في عيب شيء يتصل
به فضلا عن ذكره في نفسه عيبه ولا تطمعن في ذلك احدا
من اسبابك والمتصلين بك جدا ولا هزلا وكيف يحتمل ذلك

فيه

فيه وانت عينه وقلبه وخليفته على الناس كلهم بل انت
هو هو فانه ان بلغه شيء مما حذرتك منه لم يشك ان ذلك كان
عن رايك وهواك فانقلب عدوا ونفر عنك نفور الضد فان
عرفت انت منه عيبا توافقه عليه موافقة لطيفة ليس فيها
غلظة فان الطبيب الرفيق ربما يبلغ بالدواء اللطيف ما يبلغه
غيره بالشق والقطع والكي بل ربما توصل بالغذاء الى الشفاء
والتوقي به عن المعالجة بالدواء ولست احب ان تغضي عما
تعرفه في صديقك وان يترك موافقته عليه بهذا الضرب
من الموافقة فان ذلك خيانة منك ومسامحة فيما يعود ضرره
عليه وليس حق الصديق ان يغتر ويبذل العيون للاضداد
حتى يعيبوه ويثلبوه ثم احذر النميمة وسماعها وذلك
ان الاشرار يدخلون بين الاخيار في صورة النصحاء فيوهمونهم
النصيحة وينقلون اليهم في عرض الاحاديث اللذيذة اخبار
اصدقائهم محرفة مموهة حتى اذا تحاسروا اعلنهم بالحديث
المختلق صرحوا لهم بما يفسد مودتهم ويشوه وجوه صداقاتهم

الى ان يبغض بعضهم بعضا وللقدما فى ذلك كتب مؤلفة يحذرون
فيها فى النميمة ويشبهون صورة النمام بمن يحك باظافيره اصول
البنيان القوية حتى يوثر فيها ثم لا يزال يريد ويمعن حتى يدخل فيها
المعول فيقتلعها ويضربون له الامثال الكثيرة الشبيهة بحديث
الثور مع الاسد فى كتاب كليلة ودمنة ونحن نكتفى بهذا القدر من الايما
ليلا يخرج عن رسم كتابتنا وعما تبينا عليه مذهبنا من الايجاز
مع الشرح ولست اترك مع الايجاز والاختصار تعظيم هذا الباب
وتكريره عليك لتعلم ان القدما انما الفوا فيه الكتب وضربوا الامثال
واكثروا فيه من الوصايا لما راوه من النفع العظيم عند
السامعين لهم من الاخيار ولما حاموه من الضرر الكثير على
من يستهين به من الاغمار ولتعلم ان المثل المضروب فى السباع
القوية اذا دخل الثعلب الخداع على ضعفه فاهلكها
ودمر عليها وفى الملوك الحصفا يدخل بينهم اهل النميمة فى صور
المتنصحين حتى يفسدوا اتباعهم على وزرايهم المبالغين
فى نصيحتهم المجتهدين فى تثبيت ملكهم الى ان يتغيظوا عليهم

ويصرفوا

ويصرفوا اعيونهم عنهم ويصرفوا من محبتهم وابناهم اباهم
على اولادهم الى ان يملوا اعيونهم منهم والى ان يبطشوا بهم
قتلا وتعطيشا وتعذيبا وهم غير مذنبين ولا مجترمين ولا مستحقين
غير الكرامة والاحسان اذا بلغ بهم من الاضرار والافساد ما بلغه
من هولاء فكم بالحرى ان يبلغ منا اذا نجدره فى اصدقائنا
الذين اختبرناهم على الايام وادخرناهم للشدايد واحللناهم
محل ارواحنا وزدناهم تفضلا واكراما ويتبين لك من جميع
ما ذكرناه ان الصداقة واصناف المحبات التى تتم بها سعادة
الانسان من حيث هو مدنى بالطبع انما اختلفت ودخل
فيها ضروب الفساد وزال عنها معنى الاتحاد وعرض لها الانتشار
حتى احتجنا الى حفظها والتعب الكثير بنظمها لاجل النقصانات
الكثيرة التى فينا وحاجتنا الى تمامها مع الحوادث التى تعرض لنا
من الكون والفساد بان الفضايل الخلقية انما وضعت من اجل
المعاملات والمعاشرات التى لا يتم الوجود الانسانى الا بها
وذاك ان العدل انما احتيج اليه لتصحيح المعاملات وليزول به

معنى الجور الذي هو رذيلة عن المتعاملين وانما وضعت
العفة فضيلة لاجل اللذات الردية التي تجني الجنايات العظيمة
على النفس والبدن وكذلك الشجاعة وضعت فضيلة من اجل الاهوال
الهايلة التي يجب ان يقدم عليها في بعض الاوقات ولا يهرب
منها وعلى هذا جميع الاخلاق المرضية التي وضعناها حضضنا
على اقتنائها وايضا فان جميع هذه الفضايل يحتاج الى اسباب
خارجة عنا والى افعال كثيرة الفنون اعني ان الحر يحتاج
الى الاموال والى اكتسابها من وجوهها ليمكنه ان يفعل فعل
الاحرار والعادل يحتاج الى مثل ذلك ليجازي من عاشره بجميل
ويكافي من عامله باحسان وجميعها لا يقوم الا بالابدان والانفس
وما هو خارج عنهما على حسب تقسيمنا السعادات فيما مضى وكلما
كانت الحاجات اكثر احتيج فيها الى المواد الخارجة عنا اكثر
فهذه حال السعادة الانسانية وبالاعوان الصالحين والاصدقاء
المخلصين وهي كما ترى كثيرة والتعب بها عظيم ومن قصر
فيها قصرت به السعادة الخاصة به ولذلك صار الكسل ومحبة الراحة

من اعظم

من اعظم الرذايل لانهما يحولان بين المرء وبين جميع الخيرات
والفضايل ويسلخان الانسان من الانسانية ولهذا ذممنا
المتوسمين بالزهد اذا تفردوا عن الناس وسكنوا الجبال
والمغارات واختاروا التوحش الذي هو ضد التمدن
لانهم ينسلخون عن الفضايل الخلقية التي عددناها كلها فكيف
يعف ويعدل ويسخو ويشجع من فارق الناس وتفرد
عنهم وعدم الفضايل الخلقية وهل هو الا بمنزلة الجماد او الميت
فاما محبة الحكمة والانصراف الى التصور العقلي فاستعمال الاراء
الالهية فانها خاصة بالجزء الالهي من الانسان وليس
يعرض لها شي من الافات التي تعرض للمحبات الاخر الخلقية
ولا يلحقها ضرب من ضروب الفساد ولذلك قلنا انها لا تقبل
النميمة ولا نوعا من انواع الشرور لانها الخير الاول وسببها ذلك
الخير الاول الذي لا يشوبه شي من المواد فلا تلحقه الشرور التي
في المواد وما دام الانسان يستعمل الاخلاق والفضايل
الانسانية فانها تعوقه عن هذه الخير الاول وهذه السعادة

الالهية ولكن ليس يتم له هذا الا بتلك ومن يحصل تلك الفضائل
في نفسه ثم اشتغل عنها بالفضيلة الالهية فقد اشتغل بذاته
حقا ونجا من مجاهدات الطبيعة والامها ومن مجاهدات
النفس وقواها وصار مع الارواح الطيبة واختلط بالملائكة
المقربين فاذا اشتغل من وجوده الاول الى وجوده الثاني
حصل في النعيم الابدي والسرور الالهي السرمدي فقد قال
ارسطوطاليس جميع هذه الالفاظ وقال ان السعادة التامة
الخالصة هي لله عز وجل ثم للملائكة والمتالهين ثم قال ولا ينبغي
ان يضيف الى الملائكة تلك الفضائل التي عددناها في سعادات
الانسان فانهم لا يتعاملون ولا يكون عند احد منهم وديعة
فيحتاج الى ردها ولا لاحد منهم تجارة فيحتاج الى العدالة
ولا يفزعه شيء فيحتاج الى النجدة ولا له نفقات فيحتاج الى
الذهب والفضة ولا له شهوات فيحتاج الى ضبط النفس والى
فضيلة العفة ولا هو مركب من الاستقصات الاربعة التي
تتحلل من اضدادها فيحتاج الى الغذاء فاذا هؤلاء الابرار

المطهرون

المطهرون من خلق الله عز وجل غير محتاجين الى الفضائل الانسية
والله تقدس وتعالى اجل من الملائكة فيجب ان ينزهه عن جميع
ما ذكرناه من فضائل الانسان وانما نذكره بالخير البسيط الذي
تشبهه وينسب اليه الامور العقلية التي يليق به فبالحق الواجب
الذي يعرف السعادة والخير بالحقيقة فلذلك يتقرب اليه بما جهده
ويطلب مرضاته بقدر طاقته ويتقبل افعاله بنحو استطاعته ومن
احب الله تعالى هذه المحبة وتقرب اليه هذا التقرب و الطاعة
هذه الطاعة احبه الله وقربه وارضاه واستحق خلته
التي اطلقتها الشريعة في بعض البشر حتى قيل ابراهيم خليل الله
ومحمد حبيب الله عليهما السلام فاما ارسطوطاليس فانه
ظ الطلق
الخلق بعد ذلك ما لعله غير مطلق في لغتنا وذلك انه قال من احب
الله تعالى هذه كما يتعاهد الاصدقاء بعضهم بعضا واحسن اليه
ولذلك ظن بالحكيم اللذات العجيبة وضروب الفرح الغريبة ويرى
من تحقق بالحكمة انها ملذة غاية الالتذاذ فلا يلتفت الى غيرها
ولا يعرج على سواها واذا كان الامر على ما وصفنا فالحكيم السعيد

التام للحكمة. والسعادة هو الله عز وجل وليس يحبه الا السعيد
الحكيم بالحقيقة لان الشبيه انما يسر بشبيهه فقط ولذلك صارت
هذه السعادة ارفع واعلى من تلك السعادة التي ذكرناها وهي
غير منسوبة الى الانسان لانها مهذبة من الحيوة الطبيعية مبرأة
من القوى النفسانية. مباينة لجميعها غاية المباينة وانما
هي موهبة الهية يهبها لمن اصطفاه من عباده ثم لمن التمسها
منه وسعى لها سعيها ورغب فيها ولزمها مدة حياته
واحتمل النفقة والتعب فان من لم يصبر على ادامة التعب يشتاق
الى اللعب وذلك ان اللعب لم يرجع ان اللعب شبه الراحة والراحة
ليست من تمام السعادة ولا من اسبابها وانما يميل الى الراحات
البدنية من كان طبيعي الشكل بهيمي النجاد كالعبيد والصبيان
والبهايم وليس احد من الحيوان غير الناطق ولا العبيد
ولا الصبيان الى السعادة الا من كان مناسبا لهم فاما العاقل
الفاضل فانه يطلب بهمته اعلى المراتب وارسطوطاليس يقول
ليس ينبغي ان تكون همة الانسان انسية وان كان انسيا ولا يرضى
بهمة الحيوان

بهمة الحيوان الميت وان كان هو ايضا ميتا بل يقصد بجميع
قواه ان يحيى حياة الهية فان الانسان وان كان صغير
الجثة فانه عظيم بالحكمة شريف بالعقل والعقل يفوق جميع الخلايق
لانه الجوهر الرئيس المستولي على هذا الكل بامر مبدعه تبارك
وتعالى وقد قلنا فيما تقدم ان الانسان ما دام في هذا العالم
فانه محتاج الى حسن الحال الخارجة منه ولكن لا ينبغي ان يسرف
في طلب ذلك فتفوته كلها ولا يطلب الا ما يستكثر منه فقد يصل
الى الفضيلة من ليس بكثير المال ولا ظاهر اليسار فان الفقير من
المال والاملاك فقد يفعل الافعال الكريمة وكذلك قال الحكماء ان
السعداء هم الذين رزقوا القصد من الخيرات الخارجة عنهم
وفعلوا الافعال التي تقتضيها الفضيلة وان كانت قنيتهم
قليلة فهذا كلام الحكيم في هذه المرتبة التي وعدناك الكلام فيها
وهو يقول بعد ذلك ليس في معرفة الفضايل كفاية بل الكفاية
في العمل بها واستعمالها ومن الناس من ينهض الى الفضايل
وينقاد للموعظة ويرغب في الخير وهؤلاء قليلون وهم الذين ينتفعون

من جميع الرداءة والشرور وذلك للغريزة الجيدة والطبع الفايق
ومنهم من يقال الى الخيرات حتى يمتنع من الرداءة والشرور بالوعيد
والفزع والانذارات من العذاب فيهرب من الجحيم والهاوية
وما اعد فيهما من الالام ولذلك حكمنا ان بعض الناس اخيار
بالطبع وبعضهم اخيار بالشرع وبالتعلم فالشريعة تجري لهولاء
مجرى الماء للغصان الذي يسيغ به غصته فمن لا يسغها
فهو كالشرق بالماء الذي لا يوجد له ما يسيغ غصته وهو الهالك
لا حيلة فيه ولا طمع في اصلاحه وبرئه لهذه العلة قلنا
ان من كان بالطبع خيرا فاضلا فذلك لمحبة الله اياه وليس لامره
الينا ولا نحن كنا سببه بل الله سبحانه ومثل هذا هو الذي
يقول فيه ارسطوطاليس ان عناية الله به اكثر فيحصل لما قد مناه
ان اصناف السعداء من الناس اربعة وهم موجودون
بالتصفح والحس وذلك انا نجد من الناس من هو خير فاضل
من مبداء كونه ترى فيه النجابة طفلا ويتفرس فيه
الفلاح ناشيا بان يكون حبيا كريم الخيم يوثر مجالسة الاخيار

وموافقة

وموافقة الفضلاء وينفر من اضدادهم وليس يكون كذلك
الا بعناية تلحقه من اول مبداه كما قلنا ونجد ايضا من لا يكون
بهذه الصفة من مبداء كونه بل يكون كساير الصبيان الا انه
يسعى ويجتهد ويطلب الحق اذا راى اختلاف الناس فيه ولا يزال
كذلك حتى يبلغ مرتبة الحكما اعني ان يصير علمه صحيحا وعمله
صوابا وليس يبلغ هذه الدرجة الا بالتفلسف واطراح العصبيات
وساير ما حذرنا منه ونجد ايضا من يوخذ بهذه السيرة
اخذا على اكراه اما بالتاديب الشرعي واما بالتعليم الحكمي وبعلوم
ان المطلوب هو القسم الثاني اذ كانت الاقسام الباقية
هي من خارج ولا يمكن ان تطلب اعني ان من يتفق له في اصل
مولده السعادة ومن يكره عليها ليس من اقسام الطالب
المجتهد وتبين ايضا مقام المجتهد ومنزلته من السعادة التامة
الحقيقية وانه وحده من بين ساير الطبقات هو السعيد
الكامل المتقرب الى الله عز وجل المحب المطيع المستحق خلته
ومحبته كما تقدم وصفه تمت المقالة الخامسة

المقالة السادسة

نذكر في هذه المقالة بعون
الله وتاييده شفاء الامراض تلحق نفس كل انسان وعلاجاتها
ونذكر الاسباب والعلل التي تولدها وتحدث منها فان حذاق
اطباء الابدان لا يقدمون على علاج مرض جسماني الا بعد ان
يعرفوه ويعرفوا السبب والعلة فيه ثم يرومون مقابلته باضداده
من العلاجات ويبتديون من الحمية والادوية اللطيفة
الى ان ينتهوا في بعضها الى استعمال الاغذية الكريهة والادوية
البشعة وفي بعضها الى القطع بالحديد والكي بالنار ولما كانت
النفس قوة الهية غير جسمانية وكانت مع ذلك مستعملة المزاج
خاص ومرتبطة به ربطا طبيعيا الهيا لا يفارق احدهما
صاحبه الا بمشية الخالق جل وعز وجب ان نعلم ان احدهما متعلق
بصاحبه متغير بتغيره فيصح لصحته ويمرض بمرضه ونحن نرى
ذلك مشاهدة وعيانا بما يظهر لنا من افعالهما وذلك انا كنا نرى
المريض من جهة بدنه لا سيما ان كان سبب مرضه احد الجزئين الشريفين
اعني الدماغ والقلب تتغير عقله وتمرض نفسه حتى ينكر ذهنه

وفكره

وفكره وتخيله وساير قوى نفسه الشريفة ويحس ايضا من نفسه
بذلك كذلك ايضا نرى المريض من جهة نفسه اما بالغضب واما بالحزن
واما بالعشق واما بالشهوة الهايجة يتغير صورة بدنه حتى يضطرب
ويرتعد ويصفر ويحمر ويهزل ويسمن ويلحقه ضروب التغاير
المشاهدة بالحس فيجب لذلك ان نعتقد مبدا المرض اذا كان
من نفوسنا فان كان مبداء المرض من ذاتها كالفكر في الاشياء
الردية واجالة الراي فيها كاستشعار الحزن والخوف من الامور
العارضة او المترقبة او الشهوات الهايجة قصدنا علاجها
بحصتها وان كان مبداها من المزاج او من الحواس كالخور الذي
مبداه ضعف حرارة القلب مع الكسل والرفاهية وكالعشق
الذي مبداه النظر مع الفراغ والبطالة قصدنا ايضا علاجه
بما يخص هذه وايضا لما كان طب الابدان ينقسم بالقسمة الاولى
قسمين احدهما حفظ صحتها اذا كانت حاضرة والاخر ردها
اذا كانت غايبة وجب ان يقسم طب النفوس هذه القسمة
بعينها فردها اذا كانت غايبة ويتقدم في حفظ صحتها اذا كانت

حاضرة فنقول اذا كانت النفس خيرة فاضلة تحب نيل الفضائل
وتحرص على اصابتها وتشتاق الى العلوم الحقيقية والمعارف
الصحيحة فيجب على صاحبها ان يعاشر من يجانسه ويطلب من
يشاكله ولا يانس بغيره ولا يجالس سواه ويحذر كل الحذر من
معاشرة اهل الشر والنقص والمجان والمجاهدين باصابة اللذات
القبيحة وركوب الفواحش والمفتخرين بها المتهتكين فيها ولا يصغي
الى اخبارهم مستطيبا ولا يروي اشعارهم مستحسنا ولا يحضر
مجالسهم مبتهجا وذلك ان حضور مجلس واحد من مجالسهم
وسماع خبر واحد من اخبارهم ورواية بيت من اشعارهم
تعلق من قذره ووسخه بالنفس ما لا يغسل عنها الا بالزمان
الطويل والعلاجات الصعبة وربما كان سببا لفساد الفاضل
المحتنك وغوايةً للعالم المستبصر حتى يصير فتنة لهما فضلاً
عن الحدث الناشئ والمتعلم المسترشد والعلة في ذلك ان
محبة اللذات البدنية والراحات الجسمية طبيعية للانسان
لاجل النقصانات التي فيه فنحن بالجبلة الاولى والفطرة السابقة

الينا

الينا نميل اليها ونحرص عليها وانما ترتدع انفسنا عنها بزمام
العقل حتى يقف عند ما يرسم لنا ويقتصر على المقدار الضروري
منها وانما استثنيت في اول كلامي بما استثنيت وشرطت
ما شرطت لان معاشرة الاصدقاء الذين ذكرت احوالهم
في المقالة المتقدمة وحكمت بتمام السعادة معهم وبهم لا تتم
الا بالموانسة والمداخلة ولا بد في ذلك من المزاح المستعذب
والحديث المستطاب والفكاهة المحبوبة واصابة اللذة
التي تطلقها الشريعة ويقدرها العقل حتى لا يتجاوزها
الى الاسراف فيها ولا يقصر عنها تهاونا بها وذلك ان الخروج
الى احد الطرفين ان كان الى جانب الزيادة سمي مجونا وفسقا
وخلاعة وما اشبهها من اسماء الذم وان كان الى جانب
النقصان سمي فدامة وعبوسا وشكاسة وما اشبهها
من اسماء الذم ايضا والمتوسط بينهما هو الظريف الذي
يوصف بالهشاشة والطلاقة وحسن العشرة ويعرض
من الصعوبة في وجود هذا الوسط ما عرض في ساير الفضائل

وظيفة
الخلقية ومما يوخذ به من يحفظ صحة نفسه ان يلتزم
من الجزء النظري والجزء العملي لا يسوغ له الاخلال بها البتة
لتجري للنفس مجرى الرياضة التي يلتزم في حفظ صحة البدن
فان الاطباء يعظمون امر الرياضة في حفظ صحة البدن و اطباء
النفوس اشد تعظيما في حفظ صحة النفس وذلك ان النفس متى
تعطلت من النظر وعدمت الفكر والغوص على المعاني تبلدت
وتبلهت وانقطعت عنها مادة كل خير واذا الفت الكسل
وتبرمت بالروية واختارت العطلة قرب هلاكها لان في
عطلتها هذه انسلاخا من صورتها الخاصة بها ورجوعا منها
الى رتبة البهائم وهذا هو الانتكاس في الخلق ونعوذ بالله منه
واذا تعود الحدث الناشي من مبدا كونه الارتياض بالامور
الفكرية ولازم التعاليم الاربعة الف الصدق واحتمل
ثقل النظر والروية وانس بالحق ونبا طبعه عن الباطل وسمعه
عن الكذب فاذا بلغ اشده وانتقل الى مطالعة الحكمة
استمر طبعه فيها وتشرب ما يستودع منها ولم يرد عليه امر

غريب

غريب ولا يحتاج الى كثير تعب في فهم غوامض الحكمة واستخراج
دفاينها فيصل الى سعادته سريعا وان كان حافظ هذه
الصحة قد توسع في العلم وبرع فلا تحملنه العجب بما عنده على
ترك الازدياد فان العلم لا نهاية له وفوق كل ذي علم عليم
ولا يتكاسلن عن معاودة ما علمه وايقنه على سبيل الدرس
له فان النسيان افة العلم وليتذكر قول الحسن البصري رحمه الله
اقرعوا هذه النفوس فانها طلعة وحادثوها فانها سريعة
الدثور واعلم ان هذه الكلمات مع قلة حروفها كثيرة الغنا
وهي مع ذلك فصيحة قد استوفت شرط البلاغة وليعلم ايضا
حافظ هذه الصحة على نفسه انه يحفظ عليها نعما شريفة
جليلة موهوبة لها وكنوزا عظيمة مدخورة فيها وملابس
فاخرة مفرغة عليها وان من كانت هذه المواهب الجليلة
موجودة له في ذاته لا يحتاج الى تطلبها من خارج ولا بذل
الاموال فيها لغيره ولا تكلف العناء والمون الثقال في
تحصيلها ثم اعرض عنها واهمل امرها حتى انسلخ عنها وعري

منها الملوم في فعله مغبون في رايه غير رشيد ولا موفق لا سيما
وهو يرى طالبي النعم الخارجة كيف يتجشمون الاسفار البعيدة
الخطرة ويقطعون السبل المخوفة الوعرة ويتعرضون لضروب
المكاره وانواع التلف من السباع العادية وطبقات
الاشرار الباغية وهم يخيبون في اكثر الاحوال مع مقاساة
هذه الاهوال وربما عرضت لهم الندامات المفرطة والحسرات
المقطعة التي تقطع انفاسهم وتفصل اعضاءهم فان ظفر وابتغى
من مطالبهم كان لا محالة زايلا عن قريب او معرضا للزوال
وغير مطموع في بقايه لانه من خارج وما كان خارجا عنا فهو
غير ممتنع عما يطرقه من الحوادث التي لا يحصى كثرة وصاحبه
مع هذا الحال شديد الوجل دايم الاشفاق متعب الجسم والنفس
بحفظها لا يجد الى حفظه سبيلا وبالحذر عما لا يغني فيه الحذر فتيلا
وان كان طالب هذه الاشيا الخارجة عنا سلطانا او
صاحب سلطان تضاعفت عليه هذه المكاره اضعافا
كثيرة بقدر ما يلابسه وبحسب ما يقاسيه من الاضداد والحساد

على البعد

على البعد ومن القرب وبكثرة ما يحتاج اليه من المؤن في
استصلاح من يليه ويلي من يليه ومداراة من يواليه
ويعاديه وهو في كل ذلك ملوم مستبطا ومعيب مستقصر
يستزيده جميع اهله فضلا عن جميعهم ولا يزال يبلغه عن واحد واحد الناس م
من اولاده وحرمه ومن يجري مجراهم من حاشيته وحوله
ما يملؤه غيظا وحيفا فهو غير امن على نفسه من جهتهم مع التحاسد
الذي بينهم من مكاتبة الاعداء ومواطاة الحساد لهم
وكلما ازداد من الاعوان والاضداد زاده في شغل القلب
وطلبوا له من المكاره ما لم يكن عنده فهو غني عند الناس
وهو اشدهم فقرا محسود وهو اكثرهم حسدا وكيف لا يكون
فقيرا وحد الفقر هو كثرة الحاجة فاكثر الناس حاجة اشدهم
فقرا كما ان اغنى الناس اقلهم حاجة ولذلك حكمنا حكما صادقا
ان الله تعالى اغنى الاغنياء لانه لا حاجة به الى شيء من الاشيا
وحكمنا ايضا ان اعظم الملوك هم اشد الناس فقرا لكثرة حاجته
الى الاشيا ولقد صدق ابو بكر رضي الله عنه في خطبته حيث قال

اشقى الناس في الدنيا والاخرة الملوك ثم وصفهم فقال ان الملك
اذا ملك زهّده الله فيما في يديه ورغّبه عما في يدي غيره
وانتقصه شطر اجله واشرب قلبه الاشفاق فهو يحسد على القليل
ويتسخط الكثير ويسأم الرخاء وينقطع عنه لذة البهاء لا يستعمل
العبرة ولا يسكن الى الثقة فهو كالدرهم القسي والسراب الخادع
جذل الظاهر حزين الباطن فاذا وجبت نفسه ونضب عمره
وضحا ظله حاسبه فاشد حسابه واقل عفوه الا ان الملوك
هم المرحومون فهذه صفة الملك اذا تمكن في ملكه لا تعاد منه شيئا
ولقد سمعت اعظم من شاهدت من الملوك يستعيد هذا الكلام
ثم يستعبر لموافقته ما في قلبه وصدقه عن حاله وصورته ولعل من
يرى ظاهر الملوك من الاسرة والفرش والزينة والاثاث
ويشاهدهم في مواكبهم محفوفين محسودين بين ايديهم الجنائب
والمراكب والعبيد والخدم والحجاب والحشم يروعه ذلك فيظن
انهم مسرورون بما يراه لهم لا والذي خلقهم وكفانا شغلهم انهم
لفي هذه الاحوال ذاهلون عما يراه البعيد لهم مشغولون بالافكار

التي تعتورهم

التي تعتورهم وتعتريهم فيما حكينا من ضروراتهم وقد جربنا
ذلك في اليسير مما ملكناه فدلنا على الكثير مما وصفنا ولعل بعض
من يصل الى الملك والسلطان يلتذ في مبدا امره مدة يسيرة
جدا بمقدار ما يتمكن منه ويفتح عينه فيه ولكن بعد ذلك
يصير جميع ما ملكه كالشيء الطبيعي له لا يلتذه ولا يفكر فيه ويمد عينه
الى ما لا يملكه فلو ملك الدنيا بحذافيرها لتمنى دنيا اخرى او ترقت
همته الى البقاء الابدي والملك الحقيقي حتى يتبرم بجميع ما وصل
اليه وبلغته قدرته وذلك ان حفظ الدنيا صعب جدا
لما في طبيعتها من الانحلال والتلاشي ولما يضطر الملك اليه
من الامور التي وصفناها والاموال الجمة المصروفة الى الجند
المرتبطين والخدم المسترزقين والذخاير والكنوز المعدة
للآفات والاحداث التي لا يؤمن طروقها فهذه حال طلاب
النعم الخارجة فاما تلك النعم التي هي في ذواتنا فانها موجودة
عندنا وفينا وهي غير مفارقة لنا لانها موهبة الخالق عز وجل
وقد امرنا باستثمارها والترقي فيها فاذا اقبلنا امره وائتمرت

لنا نعما بعد نعم ورقينا في درجة فوق درجة حتى تؤدينا
الى النعيم الابدي الذي وصفناه فيما تقدم وهو الملك الحقيقي
الذي لا يزول والغبطة الابدية الصافية التي لا تحول فمن
اخسر صفقة واظهر سقطا ممن اضاع جواهر نفيسة باقية هي عنده
وموجودة له وطلب اعراضا خسيسة فانية ليست عنده
ولا موجودة له فان اتفق ان يجدها لم تبق له ولم يترك عليه
وذلك انها ينقل عنه او ينقل عنها لا محالة فلذلك قال الحكيم
ينبغي لمن رزق الكفاية ووجد القصد من السعادة الخارجة
الا يشتغل بفضول العيش فانها بلا نهاية ومن طلبها اوقعته
في مكاره لا نهاية ولقد علمناك فيما تقدم ما الكفاية والقصد
وان الغرض الصحيح منها هو مداواة الالام والتحرز من الوقوع فيها
لا التمتع وطلب اللذة وان من عالج الجوع والعطش اللذين هما
مرضان والمان حادثان لا ينبغي له ان يقصد لذة البدن
بل صحته فانه سيلتذ لا محالة فان طلب بالعلاج اللذة لا الصحة
لم تحصل له الصحة ولم يبق له اللذة فاما من لم يرزق الكفاية

واحتاج

واحتاج الى الاضطراب والسعي في تحصيلها فيجب عليه
الا يتجاوز منها الى ما يضطره بعده الى السعي الخبيث والحرص
الشديد والتعرض لقبائح المكاسب وضروب المهالك والمعاطب
بل يجمل في طلبها اجمال العارف بخساستها وانه يضطر اليها
لنقصانه فيطلب منها ما يطلب ساير الحيوان من ضروراتها
فان العاقل اذا تصفح امرها وجدها على ضروب فمنها ما يأكل
الميتة ومنها ما ياكل الروث والحش وهي مسرورة بما تجد
من اقواتها قريرة العين بها وليس تحس من نفسها نفورا وليت
ولا تقززا ولا ينصرف نفوسها عنها انصراف الحيوان
المضاد لها بل انما ينصرف عن اقوات تلك الاخر التي تضادها
في النظافة ومثال ذلك الجعل والخنافس اذا القيت الى النحل
فان تلك تهرب من الروايح الطيبة والاقوات النظيفة
وهذا يطلبها ويسر بها فاذا نسبة كل حيوان الى قوته
الخاص به كنسبة الحيوان الاخر الى قوته الخاص به وكل مقتنع
بما يحفظ بقاءه وحياته طالب له مسرور به فينبغي ان ينظر

الى اقواتنا بهذه العين وتنزلها منزلة الحشو الذي يضطر الى
ملابسته لاخراج ما كنا نحرص على الوصول اليه فلا نبعدها
من هذا الاخر لانهما ضروريان لنا فنحن نلابسهما لاجل الضرورة
ولا يشغل عقولنا باختيارها والتمتع بهما وافناء اعمارنا في
التانق لهما والتوصل اليهما ولا نتكاسل ايضا عن اعداد ضروراتنا
منهما وانا نفضل احدهما على الاخر ونستحسن السعي في طلب الاكل
ولا نستحسن السعي في طلب المخرج لان الاول منهما هو غذا موافق
لنا يخلف علينا ما تحلل من ابداننا وكالا نستوحش ولا ينفر
من ابداننا ولا نستقذرها كذلك لا ينفر مما نصنعه مكان ما ينقص
منه وينوب عنه فاما الثاني منهما فهو عصارة ذلك الغذا وما نفته
الطبيعة واخذت حاجتها منه اعني الذي احالته دما صافيا
وفرقته في العروق على الاعضاء واطرحت الثقل الذي
لا حاجة بها اليه وهو في غاية المخالفة والبعد من امزجتنا
فنحن نستوحش منه وننفر عنه لاجل الضدية والمخالفة الا
انا مضطرون الى اخراجه وتنحيته ونفضه عنا بالالات

الموهوبة لنا المستعملة في ذلك فليفتر عن مكانه لما ياتي
بعده ويجري مجراه وينبغي لحافظ الصحة على نفسه الا يحرك
قوته الشهوية ولا قوته الغضبية بتذكر ما كان اصاب
منهما فوجد لذة بهما بل يتركهما حتى يتحركا لانفسهما واعني بهذا
ان الانسان ربما يذكر لذاته من اصابة الشهوات وطيبها
او مراتبه من كرامات السلطان وعزها فاشتاق اليها
واذا اشتاق اليها تحرك نحوها واذا تحرك نحوها فقد جعلها
غرضا له فيضطر الى استعمال الروية واستخدام النفس الناطقة
فيه لتدبر له الوصول اليه وهذه صورة من يثير بهايم عادية
ويهيج سباعا ضارية ثم يلتمس معالجتها والخلاص منها
وليس يختار العاقل لنفسه هذه الحال بل هو من افعال المجانين
الذين لا يميزون بين الخير والشر ولا بين الصواب والخطاء
فلذلك يجب الا يتذكر اعمال هاتين القوتين لئلا يشتاق اليها
ويتحرك نحوها بل يتركهما فانهما ينبعثان لانفسهما ويهيجان
عند حاجتهما ويلتمسان ما يحتاج البدن اليه ويجد من

باعث الطبيعة ما يغنيك عن بعثها بالفكر والروية والتمييز
ويكون ح فكرك وتميزك في ازاحة علتها وتقدير ما تطلقه
لها في الامر الضروري الواجب لابداننا الحافظ لصحتها
وهذا هو امضاء مشية الله عز اسمه واتمام سياسته
لانه تعالى انما وهب لنا هاتين القوتين لنستخدمهما عند حاجاتنا
اليهما لا لتخدمنا ونتعبد لهما فكل من استعمل النفس الناطقة
في خدمة عبيدها فقد تجاوز امر الله وتعدى حدوده
وعكس سياسته وتقديره ولا عدل اشرف وافضل من ترتيبه
وتدبيره فكل من خالفه وعدل عنه فهو اعظم جاير على ذاته
واكبر ظالم لنفسه وينبغي لحافظ الصحة على نفسه ان يلطف نظره
في كل ما يفعل ويدبر ويستعمل فيه الآلات بدنه ونفسه لئلا
يجري فيها على عادة تقدمت له مخالفة لما يوجبه رويته
وتميزه فما اكثر ما يبدر من الانسان فعل مخالف لما قدم فيه
عزيمته وعقد عليه رايه فمن عرض له مثل هذا فيجب عليه
ان يضع لنفسه عقوبات تقابل بها امثال هذه الذنوب

فاذا

فاذا انكر من نفسه مبادرة الى طعام ضار او ترك حمية قد كان
استشعرها او تناول فاكهة غير موافقة او حلوا كذلك
عاقب نفسه بصوم لا يفطر الا على الطف ما يقدر عليه
واقله وان امكنه الطي فليطو ويزيد في الحمية من غير حاجة
اليها ولكن في توبيخه لنفسه ان يقول لها انك قصدت
تناول النافع فتناولت الضار وهذا فعل من عقل له
ولعل كثيرا من البهايم احسن حالا منك لانه ليس فيها ما تقصد
لذة لها ثم يتناول ما يولمها فاستمسكي الآن للعقوبة
وان انكر من نفسه مبادرة الى الغضب في غير موضعه او على من
لا يستحقه او زيادة على ما يجب منه فليقابل ذلك بالتعرض
لسفيه يعرفه بالبذاء ثم ليحتمله او ليتذلل لمن يعرفه
بالجبرية ممن كان لا يتذلل له قبل ذلك او ليفرض على نفسه
ما لا يخرجه صدقة وليجعل ذلك نذرا عليه لا يحل به وان انكر
من نفسه كسلا وتوانيا في مصلحة له فليعاقب نفسه بسعي
فيه مشقة او صلوة فيها طول او بعض الاعمال الصالحة

التي فيها كدٌّ وتعبٌ وبالجملة فليرسم على نفسه رسوماً يصير عليها
فرايض وحدوداً لا يخلّ بها ولا يترخّص فيها اذا انكر من
نفسه مخالفةً وتجاوزاً المحدوده ومرسومه وليحذر في
جميع اوقاته ملابسة رذيلة او مساعدة رفيق عليها
او مخالفة صواب ولا يستحقرنّ شيئاً ياتيه من صغاير
السيات ولا يطلبن رخصة فيها فان ذلك يدعوه الى ما عظم
منها ومن تعوّد في مبدا نشئه وحداثة شبابه ضبط
النفس عن شهواته والحلم عند ثورة غضبه وحفظ لسانه واحتمال
اقرانه خفّ عليه ما يثقل على غيره ممن لا يتادّب بهذه الاداب
وبيان ذلك انا نجد العبيد واشباههم اذا بُلوا بموالي يشفهون
عليهم ويشتمون اعراضهم هان عليهم الخطب فيما يسمعونه
حتى لا يؤثر فيهم وربما تضاحكوا عند سماع مكروه شديد
ضحكاً غير متكلف ويعملون عند ذلك اعمالهم وادعين طلعين
وقد كانوا قبل ذلك شرسين عصوبين غير محتملين ولا متمكنين
عن الاجوبة والانتقام بالكلام وطلب التشفي بالخصام وهذه
سبيلنا

سبيلنا اذا الفنا الفضايل وتجنبنا الرذايل وامسكنا عن مقابلة
السفها ومجاراتهم والانتقام منهم وينبغي ان يتشبه بالملوك
الموصوفين بالحزم فانهم يستعدون للاعداء بالعدّة والعتاد
والتحصّن قبل هجوم العدو وهم في مهلة من زمانهم وفي اتساع
من نظرهم ولو اغفلوا ذلك الى ان تحزبهم المكاره وتطرقهم
الشدايد لاذهلهم الامر عن الحيلة وعن الراي الشديد فعلى
هذا الاصل يجب ان يبني امورنا في الاستعداد لاعدائنا من
الشهوة والغضب وساير ما يزيلنا عن اغراضنا من الفضايل
بان يتعود الصبر على ما يجب الصبر عليه والحلم عمن ينبغي ان نحلم
عنه ونضبط النفس عن الشهوات الرديه ولا ننتظر بدفع
هذه الرذايل وقت هيجانها فان الامر عند ذلك صعب جدا
ولعله غير ممكن البتة ويجب على حافظ صحة نفسه وان يتطلب
عيوب نفسه باستقصاء شديد ولا يقنع بما قال جالينوس
في ذلك فانه ذكر في كتابه المعروف بتعرف الانسان عيوب نفسه
انه لما كان كل انسان يحب نفسه خفي عليه معايبه ولم يرها

وان كانت ظاهرة واشار في كتابه هذا بان يختار من يجب
ان يبرأ من العيوب صديقا كاملا فاضلا فيخبره بعد طول
المؤانسة انه انما يعرف صدق مودته اذا صدقه عن عيوبه
حتى يتجنبها ويأخذه عهده على ذلك ولا يرضى منه اذا قال لك
لا اعرف لك عيبا بل يعتب عليه وينكره ما يقوله ويعلمه انه قد
اتهمه بالخيانة ويعاود مسألته والالحاح عليه فان لم يخبره
بشيء من عيوبه فليظهر موجدة رفيقة وعتبا صحيحا فيزيد
في الرغبة اليه والالحاح عليه فاذا اخبره ببعض ما يعثر
عليه منه فلا يظهرن في وجهه او كلامه كراهية ولا امتعاضا
بل يبسط له وجهه ويظهر السرور بما اخرجه اليه ونبهه عليه
ويشكره على الايام وفي اوقات المؤانسة ليتطرق له الى اهداء
مثله اليه ثم ليعالج ذلك العيب بما يزيل اثره ويمحو ظله ليعلم
ذلك المهدي اليك عيبك انك من وراء اصلاح نفسك وفي طريق
علاج مرضك فلا ينقبض عن معاودتك ونصيحتك وهذا الذي
اشار به جالينوس معوز غير موجود ولا مطموع فيه ولعل العدو
انفع

في هذا الموضع انفع من الصديق فان العدو لا يحتشمنا
في اظهار عيوبنا بل يتجاوز ما يعرف منا الى التخرص والتكذب
فيها فنستفيد علم كثير من عيوبنا بل يتجاوز في ذلك الى ان يتهم
نفوسنا بما ليس فيها ولجالينوس ايضا مقالة يخبر فيها ان خيار
الناس ينتفعون باعدائهم وهذا صحيح لا يخالفه فيه احد وذلك
لما ذكرناه فاما ما اختاره ابو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي
في ذلك فهو ما احكيه بالفاظه وهو هذا قال ينبغي لطالب الفضيلة
ان يتخذ صور جميع معارفه من الناس مرآة له تريه
صورة واحد منهم عندما يعرض له من الآلام التي تثمر السيئات
حتى لا يعزب عنه شيء من سيئاته وذلك انه يكون متفقدا سيئات
الناس فمتى رأى سيئة بادية من احد ذم نفسه عليها كانه
هو فعلها واكثر عتبه على نفسه من اجلها ويعرض على نفسه في آخر
كل يوم وليلة جميع افعاله حتى لا يشذ عنه شيء منها فانه قبيح بنا
ان نجتهد في حفظ ما انفقناه في التجارة الدنية والارباح الخامدة
العرضية التي لا ينقصها عدمها البتة في كل يوم ولا نحفظ

ما ينفق من ذواتنا التى بتوفيرها بقاؤنا وبنقصانها فناؤنا
فاذا وقفنا على سيئة من افعالنا استدعد لنا لانفسنا عليها
ثم يقيم عليها احد انفرضه ولا نضيعه واذا تصفحنا افعال غيرنا
ووجدنا فيها سيئة عاتبنا ايضا نفوسنا عليها فان النفس
ترتدع حينئذ عن المساوى وتالف الحسنات ويكون المساوى ابدا
منا ببال لا ننساها ولا ياتى عليها زمان طويل فيعفو ذكرها
وكذلك ينبغى ان نعمل فى الحسنات لنتشرع اليها ولا يفوتنا شىء منها
قال وينبغى الا نقنع بان يصير اشباه الدفاتر والكتب التى تفيد
غيرها معانى الحكمة وهى عادمة اقتناؤها وكالمسان التى تشحذ
ولا تقطع بل يكون كالشمس التى تفيد القمر كلما اشرقت عليه انارة
من فيض نورها انها فيفعل له تماما يكون لها شبيها وان قصر عن
نورها فهكذا ينبغى ان يكون حالنا اذا افدنا غيرنا الفضايل
وهذا الذى ذكره الكندى فى ذلك ابلغ مما قال من تقدمه

القول فى رد النصيحة على النفس اذا لم تكن حاضرة وهو
القول فى علاج امراضها ونبتدئ بمعونة الله عز وجل

بذكر

بذكر اجناس هذه الامراض العالية ثم بمداراة الاعظم فالاعظم
منها نكاية والاكثر فالاكثر منها جناية. فنقول ان اجناسها
العالية فهى مقابلات الفضايل الاربع التى احصيناها فى مبدا الكتاب
ولما كانت الفضايل اوساطا محدودة واعيانا موجودة امكن
ان تطلب وتقصد وينتهى اليها بالسعى والاجتهاد فاما ساير
النقط التى ليست باوساط فانها غير محدودة لا انها اعيان
موجودة ووجودها بالعرض لا بالذات ومثال ذلك ان الدايرة
لها مركز واحد وهى نقطة واحدة ولها وجود فى ذاتها تقصد
وتشار اليها فان لم نجدها حسا او لم يمكنا الاشارة اليها
امكننا استخراجها واقامة البرهان على انها هى المركز دون غيرها
من النقط فاما النقط التى ليست بمركز فهى بلا نهاية ولا وجود لها
بالذات وانما توجد اذا فرضت فرضا وليست لها عين
قايمة فلذلك لا يقصد استخراجها لانها مجهولة ولانها سايعة
فى جميع بسيط الدايرة فاما الطرفان اللذان يسميان متضادين
فهما موجودان معينان لانهما طرفا خط مستقيم معين والبعد بينهما

غاية البعد ومثال ذلك انا اذا اخرجنا من مركز الدائرة خطا
مستقيما الى المحيط صار طرفاه محدودين احدهما المركز والآخر
نهايته عند المحيط والبعد بينهما غاية البعد ومثال ذلك من المحسوس البياض
والسواد فان احدهما مضاد للآخر وهما محدودان والبعد
موجودان بينهما غاية البعد فاما الاوساط التي بينهما فهي لا نهاية
وكذلك الالوان هي بلا نهاية فاما اطراف الفضيلة فلما كانت
اكثر من واحد لم تسم ضدا الا ان لكل ضد ضدا واحدا ولا يمكن
ان يوجد اضداد كثيرة لضد واحد والسبب في ذلك ان البعد
بينهما غاية البعد وقد نجد للفضيلة الواحدة اكثر من طرف
واحد وذلك اذا تصورنا الفضيلة مركزا واخرجنا منه خطا
مستقيما فحصلت له نهاية امكننا ان نخرج من الجانب المقابل
له خطا آخر على استقامة فيصير له نهاية اخرى ويصيران جميعا
متقابلين للمركز الذي فرضناه الا ان احدهما يجري لها مجرى الافراط
والغلو والآخر يجري مجرى التفريط والتقصير واذ قد فهم ذلك
فليعلم ان لكل فضيلة طرفين محدودين يمكن الاشارة اليهما

واوساطا

واوساطا بينهما كثيرة لا نهاية لها ولا يمكن الاشارة اليها
الا ان الوسط الحقيقي هو واحد وهو الذي سميناه فضيلة
ثم ليعلم انا بحسب هذا البيان يجعل اجناس الرذائل ثمانية
لانها ضعف الفضائل الاربع التي تقدم شرحها وهي هذه التهور
والجبن طرفان للوسط الذي هو الشجاعة الشره والخمود طرفان
للوسط الذي هو العفة الجهل والدهاء طرفان للوسط الذي
هو الحكمة الجور والمهانة اعني الظلم والانظلام طرفان للوسط
الذي هو العدالة وهذه اجناس الامراض العالية التي تقابل
الفضائل اعني صحة النفس وتحت هذه الاجناس انواع لا نهاية
لها ونبدأ بذكر التهور والجبن اللذين هما طرفا الشجاعة
وهي فضيلة النفس وصحتها فنقول ان سببهما ومبدأهما النفس
الغضبية ولذلك صارت الثلثة باسرها من علائق الغضب
علاج الغضب والغضب هو بالحقيقة حركة للنفس يحدث
بها غليان دم القلب شهوة الانتقام فاذا كانت هذه الحركة
عنيفة اججت نار الغضب واضرمتها فاحتد غليان دم القلب

وملاوت الشرايين والدماغ دخانا مظلما مضطربا تسوء
منه حال العقل وتضعف فعله ويصير مثل الانسان عند ذلك
على ما قالته الحكما مثل كهف ملى حريقا واضرم نارا واختنق
فيه اللهب والدخان وعلامتها الاجيج والصوت المسمى
وحر النار فيصعب علاجه ويتعذر اطفاوه ويصير كل ما يدنيه
منه للاطفاء سببا لزيادته ومادة لقوته فلذلك يعمى الانسان
عن الرشد ويصم عن الموعظة بل تصير المواعظ كلها في تلك الحال
سببا للزيادة في الغضب ومادة للهيب والتاجج وليس ترجى له
في تلك الحال حيلة وانما يتفاوت الناس في ذلك بحسب المزاج
فان كان المزاج حارا يابسا كان قريب الحال من حال الكبريت
اذا ادنيته من الشررة الضعيفة واذا كان بالضد وهذا
في مبداء امره وعنفوان حركة الغضب به فاما اذا اخذتم فتكاد
الحال تتقارب فيه وتصور ذلك من الحطب اليابس والرطب
وتمثل مبداء استعال النار بسرعة وشدة من الكبريت
والنفط ثم انحدر منها الى الادهان المتوسطة الى ان ينتهى الى

الاحتكاك

الاحتكاك فان الاحتكاك وان كان ضعيفا في توليد النار
فربما قوي حتى يلتهب منه الاجمة العظيمة والغيضة الاشبة الملتفة — الغيضة
وكذلك مثل السحاب الذي هو من البخارين كيف يحتك حتى ينقدح
بينهما النيران ويترك منهما الصواعق التى لا يثبت لنارها شي
من المواد ولا يفارق ما يتعلق به حتى يصيره رمادا وان كان
جبلا اطلس وحجرا اصم فاما السقراطيس فانه قال ان للسفينة
اذا عصفت بها الرياح وتلاطمت عليها الامواج وقذفت بها
الى اللجج التى فيها الجبال ارجى منى للغضبان الملتهب وذلك
ان السفينة في تلك الحال يلطف لها الملاحون ويخلصونها
بضروب الحيل فاما النفس اذا استشاطت غضبا فليس يرجى
لها حيلة بتة وذلك ان كل ما رمي به الغضب من التضرع
والموعظة والخضوع يصير بمنزلة الجزل من الحطب يوهجه
ويزيده اشتعالا فاما اسبابه المولدة فهى هذه العجب
والافتخار والمراء واللجاج والمزاح والتيه والاستهزاء والغدر والضيم
طلب الامور التى فيها عزة ويتنافس فيها الناس ويتحاسدون

عليها وشهوة الانتقام غاية لجميعها لانها باجمعها ينتهي اليه
ومن لواحقه الندامة وتوقع المجازاة بالعقاب عاجلا او اجلا
وتغير المزاج وتعجل الالم وذلك لان الغضب جنون ساعة وربما
ادى الى التلف باختناق حرارة القلب فيه وربما كان سببا
لامراض صعبة مؤدية الى التلف ومن لواحقه مقت
الاصدقاء وشماتة الاعداء واستهزاء الحساد والاراذل من الناس
ولكل واحد من هذه الاسباب التي تقدم ذكرها علاج سدا له
حتى ينقطع من اصله فانا اذا تقدمنا بحسم هذه الاسباب
واماطتها فقدنا وهنا قوة الغضب وقطعنا مادته واطفانا
غايلته فان عرض لنا منه عارض كان بحيث يطيع العقل
ويلتزم شرايطه وحدث فضيلة اعني الشجاعة فكان ح
اقدامنا على ما نقدم عليه كما يجب وبحيث يجب وبالمقدار الذي
يجب وعلى من يجب اما العجب فحقيقته اذا حددناه انه ظن
كاذب بالنفس في استحقاق مرتبة هي غير مستحقة لها
وتعتيق على من عرف نفسه ان يعرف كثرة العيوب والنقصانات

التي

التي تعتورها وان الفضل مقسوم بين البشر وليس يكمل الواحد
منهم الا بفضايل غيره وكل من كانت فضيلته عند غيره فواجبة
عليه الا يعجب بنفسه وكذلك الافتخار فان الفخر هو المباهاة
بالاشياء الخارجة عنا ومن باهى بما هو خارج عنه فقد
باهى بما لا يملكه وكيف يملك ما هو معرض للافات والزوال في كل
ساعة ولحظة ولسنا على ثقة منه في شيء من الاوقات واصح
الامثال واصدقها فيه ما قال الله عز من قايل حيث يقول
واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لاحدهما جنتين الى قوله
فاصبح يقلب كفيه على ما انفق فيها وهي خاوية على عروشها
ثم قال تعالى واضرب لهم مثل الحيوة الدنيا كماء انزلناه من السماء
فاختلط به نبات الارض فاصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله
على كل شيء مقتدرا وفي القران من هذه الامثال شيء كثير
وكذلك في الاخبار المروية عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم واما المفتخر بنسبه
فاكثر ما يدعيه اذا كان صادقا ان اباه كان فاضلا ولو حضر
ذلك الفاضل وقال ان الفضل الذي تدعيه لي انا مستبد به

دونك فما الذي عندك منه ما ليس عند غيرك لا سكنه والخيله
وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذا المعنى اخبار
كثيرة صحيحة منها انه قال عليه السلام لا تاتوني بانسابكم واتوني
باعمالكم وما هذا معناه ويحكى عن ملوك كان لبعض الفلاسفة
انه افتخر عليه بعض رؤساء زمانه فقال له ان افتخرت علي
بفرسك فالحسن والفراهة للفرس لا لك وان افتخرت ببزتك
وآلاتك فالحسن لها دونك وان افتخرت بآبائك فالفضل فيهم لا فيك
فاذا كانت الفضائل والمحاسن خارجة عنك فلها دونك وانت
منسلخ منها وقد رددناها على اصحابها لم يخرج عنهم فترد
عليهم فانت من وحكي عن بعض الفلاسفة انه دخل على بعض اهل
اليسار والثروة وكان يحتشد في الزينة ويفتخر بكثرة ماله
وآلاته وحضرت الفيلسوف بزقة فتنحنح لها والتفت
في البيت يمينا ثم بزق في وجه صاحب البيت فلما عوتب على ذلك
قال اني نظرت الى البيت وجميع ما فيه فلم اجد هناك اقبح
منه فبزقت عليه وهكذا يستحق من كان خاليا من فضائل نفسه

وافتخر

وافتخر بالخارجات عنه فاما المراء واللجاج فقد ذكرنا قبح
صورتهما في المقالة التي قبل هذه وما يولدانه من الشتات
والفرقة والتباغض من الاخوان واما المزاح فان المقدار المعتدل
منه محمود وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يمزح ولا يقول
الا حقا وكان امير المؤمنين عليه السلام كثير المزاح حتى عابه بعض
الناس به فقال لولا دعابة فيه ولكن الوقوف على المقدار
المعتدل منه صعب واكثر الناس يبتدي به ولا يدري ان
يقف منه فيخرج عن حده ويروم الزيادة على صاحبه فيه
حتى يصير سببا للوحشة فيثير غضبا كامنا ويزرع حقدا باقيا
فلذلك عددناه في الاسباب فينبغي ان يحذره من لا يعرف حده
ويذكر قول القائل رب جد جره اللعب وبعض الحرب
او له مزاح ثم تهيج فتنة لا تهتدي لعلاجها واما التيه
والتباه يتيه على غيره ولا يكذب نفسه الا انه علاجه
علاج المعجب بنفسه وذلك بان يعرف ان ما يتيه به
لا مقدار له عند العقلاء وانهم لا يعتدون به لخساسة قدره

فهو قريب المعنى من العجب والفرق
بينهما ان المعجب يكذب نفسه
فيما يظن بها من حو

ونزارة حظه من السعادة ولانه متغير زايل غير موثوق ببقائه
ولان المال والاثاث وساير الاعراض وقد يوجد عند النوكى
والانذال فاما العلم والحكمة وساير الفضايل فليس يوجد الا عند
اهلها من الحكماء والفضلاء خاصة واما الاستهزاء فانما يستعمله
المجان من الناس والمساخر ولا تبالى بما يقابل به لانه قد وضع
فى نفسه احتمال ذلك واضعافه فهو ضاحك قرير العين بضروب
الاستخفافات التى تلحقه وانما ينتعش بالدخول تحت المذلة
والصغار بل انما يتعرض بتقليل ما يبتدى به لكثرة ما يعامل
به ليضحك غيره وينال اليسير من بره والحر الفاضل يبعد
من هذا المقام جدا ويكرم نفسه وعرضه عن تعريضهما
للسفهاء وبيعهما بجميع خزاين الملوك عن الحقير التافه
واما الغدر فوجوهه كثيرة اعنى انه قد يستعمل فى المال وفى الجاه
وفى الحرم وفى المودة وهو على كثرة وجوهه مذموم بكل لسان
ومعيب عليك كل احد ينفر السامع من ذكره ولا يعتريه انسان
وان قل حظه من الانسانية وليس يوجد الا فى جنس من اجناس

العبيد

العبيد يتوقاهم الناس ويانف منهم ساير اجناس العبيد
وذلك ان الوفا الذى هو ضده موجود فى جنس الروم والحبشة و
والنوبة وقد شاهدنا من حسن وفاء كثير من العبيد ما لم نشاهده
فى كثير من المتسمين بالاحرار ومن عرف قبح الغدر باسمه
ونفور العقلاء منه وعرف معناه فليس يستعمله خاصة
من له طبيعة جيدة او قرا ما تقدم فى هذا الكتاب وتخلق به و
وانتهى فى قراءته الى هذا الموضع فاما الضيم فهو تكليف احتمال
الظلم والغضب انما يعرض لنفسه منه وهو شهوة للانتقام وقد ذكرنا
فيما تقدم حال الظلم والانظلام وشرحنا الحال فيهما فينبغى
الا يتسرع الى الانتقام عند ضيم يلحقنا حتى ينظر فيه ويحذر
الا يعود علينا الانتقام بضرر اعظم من احتمال ذلك الضيم
وهذا النظر والحذر هو استشارة العقل وهو الحلم بعينه
فاما طلب الاعلاق التى فيها غرة ويتنافس فيها الناس
فهو خطاء من الملوك والعظماء فضلا عن اوساط الناس وذلك
ان المسك اذا حصل فى خزانته علق كريم او جوهر نفيس فهو متعرض

به للجزع عليه عند فقده ولا بد من حلول الآفات به
لما عليه طبيعة العالم اعني عالم الكون والفساد على كل ما يدخر
ويقتنى فاذا فقد الملك ذخيرة عزيزة الوجود ظهر عليه ما يظهر
على المجزوع المصاب بما يعز عليه ويتبين فقره الى نظيره الذي
لا يجده فتطلع الصديق والعدو على حزنه وكآبته وحكي
عن بعض الملوك انه اهدي اليه قبة بلور صافية عجيبة النقاء
محكمة الخرط قد استخرج منها اساطين وصور وخاطر
بها صانعها مرة بعد اخرى في تخليص النقوش والحروف
والتجاويف التي بين الصور والاوراق فلما حصلت بين
يديه اكثر تعجبه منها وامر بها فرفعت في خاص خزانته فلم يأت
عليها كثير زمان حتى اصابها ما يصيب امثالها من التالف
وبلغ الملك ذلك فظهر عليه من الاسف والجزع ما منعه من التصرف
في اموره والنظر في مهماته والجلوس لجنده وحاشيته
واجتهد الناس في وجود شيء شبيهه فتعذر عليهم وظهر ايضا
من عجزه وامتناع مطلوبه عليه ما تضاعف به جزعه وحسرته

فاما

فاما اوساط الناس فانهم متى ادخروا آلة كريمة او جوهرا
نفيسا او اتخذوا مركوبا فارها او ما اشبه هذه الاشياء
التمسها منه من لا يمكنه رده عنها فان حاجزه عنها
وبخل عليه بها فقد نفسه ونعمته للبوادر وان سمح بها لحقه
من الجزع والغم ما كان مستغنيا عنه فاما الاحجار المتنافس
فيها من اليواقيت واشباهها مما تبعد عنه الآفات في انفسها
فليس يبعد عنها الآفات الخارجة عنها من السرقة ووجوه
الحيل فيها واذا ادخرها الملك لينتفع بها عند حاجته
اليها وربما عدم الانتفاع بها دفعة وذلك ان الملك اذا
اضطر اليها لم ينفعه في عاجل امره وحاضر ضرورته وقد شاهدنا
اعظم الملوك خطرا ممن شاهدناه لما احتاج اليها بعد فناء
امواله ونفاد ما في خزائنه وقلاعه لم يجد ثمنها ولا قريبا
من ثمنها عند احد ولم يحصل منها الا على الفضيحة في
حاجته الى رعيته في بعض قيمتها وهو لا يقدر على قليل
ولا كثير من اثمانها وهي مبذولة متداولة في ايدي الدلالين

والتجار السوقة يتجنبون منها ولا يقدرون عليها ومن
قدر منهم على ثمن شيء منها لم يتجاسر عليه خوفا من يتبعه
بعد ذلك وظهور امره فينتزع منه فهذه حال الذخاير عند
الملوك وغيرهم فاما التجار الموسومون بهذه الصناعة فربما
اتفق لهم زمان صالح وسكون من الرؤساء وامن في السرب
وح يكون بضاعتهم شبيهة بالكاسدة لانها لا ينفق
الا على الملوك الوادعين الذين لا يحزنهم شيء من نوايب الدهر
وقد استمر بهم الخفض وفضلت اموالهم عن الخزاين والقلاع
فح يغترون بالزمان فيقعون في مثل هذه الخدايع ثم تؤول
عاقبتهم الى ما حذرنا منه فهذه اسباب الغضب والامراض الحادثة
منها وقد ذكرنا علاجاتها وحذرنا من اسبابها والوقوع
فيها ومن عرف العدالة وتخلق بها كما كتبناه فيما تقدم سهل
عليه علاج فعل المرض لانه جور وخروج عن الاعتدال ولذلك
لا ينبغي ان تسميه باسماء المديح واعني بذلك ان قوما يسمون
هذا النوع من الجور اعني الغضب في غير موضعه رجولية وشدة

وسكينة

وسكينة ويذهبون به مذهب الشجاعة التي هي بالحقيقة
اسم مدح وشتان بين المذهبين فان صاحب هذا الخلق
الذي ذممناه تصدر عنه افعال ردية كثيرة يجور فيها
على نفسه ثم على اخوانه ثم على الاقرب فالاقرب من معامليه
حتى ينتهي الى عبيده وخدمه وحرمه فيكون عليهم سوط
عذاب لا يقيلهم عثرة ولا يرحم لهم عبرة وان كانوا براء
من الذنوب غير مجترمين ولا مكتسبين سوءا بل يتجرم
عليهم ويهيج من ادنى سبب يجد به طريقا اليهم حتى يبسط لسانه
ويده وهم لا يمتنعون منه ولا يتجاسرون عليه وعلى رده
عن انفسهم بل يذعنون له ويقرون بذنوب لم يقترفوها
استكفافا لشره وتسكينا لغضبه فهو في ذلك مستمر على طريقة
لا يكف يدا ولا لسانا وربما تجاوز في هذه المعاملة الناس
الى البهايم التي لا تعقل والى الاواني التي لا تحس فان صاحب هذا
الخلق الردي ربما قام الى الحمار والبرذون او الى الحمام والعصفور
فيتناولها بالضرب والمكروه وربما عض القفل اذا تعسر عليه

وكسر الانية التي لا يجد فيها طاعة لامره وهذا النوع من
رداءة الخلق مشهور في كثير من الجهال يستعملونه في الثوب
والزجاج والحديد وساير الالات فاما الملوك من هذه الطايفة
فانهم يغضبون على الامطار والرياح وعلى الهواء اذا تحرك
مخالفا لهواهم وعلى القلم اذا لم يجر على رضاهم فيسبون ذلك
ويكسرون هذا وكان بعض من تقدم عهده من الملوك يغضب
على البحر اذا تاخرت سفنه فيه لاضطرابه حتى يهدده بطرح
الجبال فيه وطمه بها وكان بعض السفهاء في عصرنا يغضب على
القمر ويسبه ويهجوه ويشعر له مشهور وذلك انه كان يتاذى
فيه اذا نام فيه وهذه الافعال كلها قبيحة وبعضها
مع قبحه مضحك يهزا بصاحبه فكيف يمدح بالرجولة
والشدة وشرف النفس وعزتها وهي بالمذمة اولى منها
بالمديح واي حظ لها في العزة والشدة ونحن نجدها
في النساء اكثر منها في الرجال وفي المرضى والضعفاء اقوى منها
في الاصحاء ونجد الصبيان اسرع غضبا من الرجال والشيوخ

اكثر

اكثر ضجرا من الشباب ونجد رذيلة الغضب مع رذيلة الشره
والشهوة فان الشره اذا تعذر عليه ما يشتهيه غضب وضجر
على من يهيئ طعامه وشرابه وعلى نسائه وخدمه وساير من
يلابس امره والبخيل اذا فقد شيئا من ماله تسرع بالغضب
على اصدقائه ومخالطيه وتوجهت تهمته الى اهل الثقة
من خدمه ومواليه وهولاء الطبقة لا يحصلون من اخلاقهم
الا على فقد الصديق وعدم النصيح والندم التبريح واللوم
الوجيع وهذه خلال لا تتم معها غبطة ولا سرور وصاحبها
ابدا محزون كئيب منغص العيش متبرم بامورة وهي حال الشقي
المرحوم فاما الشجاع العزيز النفس فهو الذي يقهر بحكمه غضبه
ويتمكن من التمييز والنظر فيما يدهمه ولا يستفزه ما يرد عليه
من المحركات لغضبه حتى يروى وينظر كيف ينتقم وممن وعلى
اي قدر او كيف يصفح ويغضي عمن في اي ذنب وقد حكي عن
الاسكندر الملك انه روي اليه عن بعض اصحابه انه يعيبه
وينتقصه وقال له بعض اصحابه لو ادبته ايها الملك بعقوبة

ينهكه فقال له وكيف يكون انهماكه بعد عقوبتي اياه في ثلبي وطلب
معايبي لانه حينئذ ابسط لسانا واعذر عند الناس واتي يوما
ببعض اعدائه من المتغلبين الخارجين عليه وكان قد عاب
في اطرافه عيبا كثيرا فصفح عنه فقال بعض جلسائه لو كنت
انا انت لقتلته فقال له الاسكندر فاذ لست انا انت فلست
بقاتله فقد ذكرنا معظم اسباب الغضب ودللنا على معالجتها
وحسمها وهو النوع الاعظم من امراض النفس واذا تقدم الانسان
في حسم سببه لم يحتش تمكنه منه وكان ما يعرض له منه سهل
العلاج قريب الزوال لا مادة له تلهبه وتمده ولا سبب
يسعره ويوقده وتجد الروية موضعا لاجالة النظر والفكر
في فضيلة الحلم واستعمال المكافات وان كان صوابا او
التغافل ان كان حزما والذي يتلو معالجة هذا النوع
من امراض النفس معالجة الجبن الذي هو الطرف الاخر من
صحتها **علاج الجبن** ولما كانت الاضداد يعرف بعضها
من بعض وكنا قد عرفنا الطرف الذي حددناه بحركة

النفس

النفس قوية يحدث منها غليان دم القلب شهوة الانتقام
فقد عرفنا اذا مقابله اعني الطرف الاخر الذي هو سكون للنفس
عندما يجب ان يتحرك فيه وبطلان شهوة الانتقام وهذا هو سبب
الجبن والخور ويتبعه مهانة النفس وسوء العيش وطمع طبقات
الانذال وغيرهم من الاهل والاولاد والمعاملين وقلة الثبات
والصبر في المواطن التي يجب فيها الثبات وهو ايضا سبب الكسل
ومحبة الراحة اللذين هما سببا كل رذيلة ومن لواحقه
الاستخذاء لكل واحد والرضا بكل ضيم ومذلة والدخول
تحت كل فضيحة في النفس والاهل والمال وسماع كل قبيحة
وفاحشة من الشتم والقذف واحتمال كل ظلم من كل معامل وقلة
الانفة مما يانف منه الناس **وعلاج هذه الاسباب** واللواحق
يكون باضدادها وذلك بان توقظ النفس التي تمرض هذا المرض
بالهز والتحريك فان الانسان لا يخلو من القوة الغضبية
راسا حتى يجلب اليه من مكان آخر ولكنها تكون ناقصة عن الواجب
فهي بمنزلة النار الجامدة التي فيها بقية لقبول الترويح والنفخ

فهي تتحرك لا محالة اذا حركت بما يلائمها وتنبعث لما في طبيعتها
من التوقد والتلهب وقد حكي عن بعض المتفلسفين انه كان
يتعمد مواطن الخوف فيقف فيها ويحمل على نفسه حضور المخاطرات
العظيمة بالتعرض لها ويركب البحر عند اضطرابه وهيجانه ليعود
نفسه الثبات في المخاوف ويحرك منها القوة التي تسكن عند الحاجة
الى حركتها ويخرجها عن رذيلة الكسل ولواحقه ولا يكره لصاحب
مثل هذا المرض بعض المراء والتعرض للملاحات وخصومة
من يامن غائلته حتى يقرب من الفضيلة التي هي وسط بين الرذيلتين
اعني الشجاعة التي هي صحة النفس المطلوبة فاذا وجدها واحس
بها من نفسها كف ووقف ولم يتجاوزها حذرا من الوقوع
في الجانب الآخر الذي علمناك علاجه علاج الخوف
ولما كان الخوف الشديد في غير موضعه من امراض النفس وكان متصلا
بهذه القوة وجب ان نذكره ونذكر اسبابه وعلاجه فنقول
ان الخوف يعرض من توقع مكروه وانتظار محذور والتوقع
والانتظار انما يكونان للحوادث في الزمان المستقبل وهذه الحوادث

ربما كانت

ربما كانت عظيمة وربما كانت يسيرة وربما كانت ضرورية
وربما كانت ممكنة والامور الممكنة ربما كانت نحن اسبابها
وربما غيرنا سببها وجميع هذه الاقسام ليس ينبغي للعاقل
ان يخاف منها اما الامور الممكنة فهي بالجملة مترجحة بين ان يكون
وبين ان لا يكون وليس يجب ان يصمم على انها يكون فيستشعر الخوف
منها ويتعجل مكروه التالم بها وهي لم يقع بعد ولعلها لا يقع
وقد احسن الشاعر في قوله وقل للفؤاد ان نزا بك نزوة
من الروع افرح اكثر الروع باطله فهذه حال ما كان منها
عن سبب من خارج فقد اعلمناك انها ليست من الواجبات التي
سن حر لابد من وقوعها وما كان كذلك فالخوف مكروه يجب ان يكون على
قدر حدوثه وانما يحسن العيش ويطيب الحيوة بالظن
الجميل والامل القوي وترك الفكر في كل ما يمكن الا يقع من المكاره
واما ما كان سببه سوء اختيارنا وجناياتنا على انفسنا
فينبغي ان نحترز منه بترك الذنوب والجنايات التي نخاف عواقبها
ولا نقدم على امر لا نامن غائلته فان هذا افعل من نسيان الممكن

ذنبا
هو الذي يجوز ان يكون ويجوز ان لا يكون وذلك انه اذا اتى
او جنى جناية قدر في نفسه انه يخفى ولا يظهر او لا يخفى ويظهر
الا انه يتجاوز عنه او لا يكون غائلة وكانه يجعل طبيعة الممكن
واجبا كما ان صاحب الاول يجعل ايضا الممكن واجبا الا ان هذا
يأمن الجانب المحذور خاصة وذلك يخاف الجانب المأمون
خاصة واعني بهذا ان الممكن لما كان متوسطا بين الجانب
الواجب والجانب الممتنع صار كالشيء الذي له جهتان تلي الواجب
والاخرى تلي الممتنع ومثال ذلك خط اب ا ج ب
فنقطة ا هي الجانب الواجب ونقطة ب هي الجانب الممتنع
وموضع ج هو الممكن وبعده من الجانبين بعد واحد
فلا الى النقطة ا نسبة جهة فاذا صار مستقبلا ماضيا بطل الحكم
الممكن عنه وحصل اما في جانب الواجب واما في جانب الممتنع
وليس ينبغي ما دام ممكنا ان يحسب للامن هذا الجانب ولا من ذلك
الجانب بل يعتقد فيه طبيعته الخاص به وهو انه يمكن ان يصير
الى ههنا والى هناك ولهذا اهمل القائل وجوه الامور الممكنة في اعقابها

واما

واما الضرورية كالهرم وتوابعه فان علاج الخوف منه
ان تعلم ان الانسان اذا احب طول الحياة فقد احب لا محالة
طول الهرم واستشعره استشعارا ما لا بد منه ومع الهرم يحدث
نقصان الحرارة الغريزية والرطوبة الاصلية التابعة لها
وغلبة ضديهما من البرد واليبس وضعف الاعضاء الاصلية
كلها ويتبع ذلك قلة الحركة وبطلان النشاط وضعف آلات
الهضم وسقوط آلات الطحن ونقصان القوى المدبرة للحيوة
اعني القوة الجاذبة والقوة الدافعة والقوة الممسكة والقوة
الغاذية وساير ما يتبعها من مواد الحيوة وليس كل الامراض
والآلام شيئا غير هذه الاشياء ثم يتبع ذلك موت الاحباب
وفقد الاعزة والمستشعر لهذه الاشياء الملتزم بشرايطها
في مبدأ كونه لا يخاف منها بل ينتظرها ويرجوها ويدعو له
بها ويرغب الى الله فيها عند الصلوات وفي المساجد والمشاهد
فهذه جملة الكلام على الخوف المطلق الكلام على الخوف من الموت
ولما كان اعظم ما يلحق الانسان منه هو الخوف من الموت وكان

هذا الخوف عامًّا وهو مع عمومه اشدّ وابلغ من جميع المخاوف
وجب ان نستوفي الكلام فيه خاصّة فنقول اما الخوف من الموت
فليس يعرض الا لمن لا يدري ما الموت على الحقيقة او لا يعلم
الى اين تصير نفسه او لانه يظنّ ان بدنه اذا انحلّ وبطل
تركيبه فقد انحلّ ذاته وبطلت نفسه بطلان عدم ودثور
وان العالم سيبقى موجودًا وليس هو بموجود فيه كما يظنه من يجهل
بقاء النفس وكيفية المعاد او لانه يظنّ انّ للموت الماً
عظيمًا غير الم الامراض التي ربما تقدمته وادّت اليه وكانت سبب
حلوله او لانه يعتقد عقوبة تحلّ به بعد الموت او لانه متحير
لا يدري على اي شيء يُقدِمُ بعد الموت او لانه يأسف على ما
يخلفه من المال والقنيات وهذه كلها ظنون باطلة لا حقيقة
لها اما من جهل الموت ولم يدر ما هو فانا نبيّن له ان الموت
ليس بشيء اكثر من ترك النفس استعمال آلاته وهي الاعضاء التي
مجموعها يسمّى بدنا كما يترك الصانع استعمال الآلاته وانّ النفس
جوهر غير جسماني وليس عرضا وانها غير قابلة للفساد وهذا البيان

يحتاج

يحتاج فيه الى علوم تتقدمه وهو مبرهن مشروح على الاستقصاء
في موضعه الخاص به ومن يطلع اليه ونشط للوقوف عليه
لم يبعد مرامه ومن قنع بما ذكرته في صدر هذا الكتاب وسكنت
نفسه اليه علم ان ذلك الجوهر مفارق لجوهر البدن مباين له
كل المباينة بذاته وخواصه وافعاله وآثاره فاذا فارق
البدن كما قلنا وعلى الشريطة التي شرطناها بقي البقاء الذي يخصه
ونقي من كدر الطبيعة وسعد السعادة التامّة ولا سبيل الى
فنائه وعدمه فان الجوهر لا يفنى من حيث هو جوهر ولا تبطل
ذاته وانما تبطل الاعراض والخواص والنسب والاضافات
التي بينه وبين الاجسام باضدادها فامّا الجوهر فلا ضدّ له
وكل شيء يفسد فانما فساده من ضدّه وقد يمكنك ان تقف على
ذلك بسهولة من اوائل المنطق قبل ان تصل الى براهينه وان
انت تأمّلت الجوهر الجسماني الذي هو اخسّ من ذلك الجوهر الكريم
واستقريت حاله وجدته لا يفنى ولا يتلاشى من حيث هو جوهر
وانما يستحيل بعضه الى بعض فتبطل خواص شيء منه واعراضه

فاما الجوهر نفسه فهو باق لا سبيل الى عدمه ولا بطلانه مثال ذلك
الما فانه يستحيل بخارا او هواء وكذلك الهوا يستحيل ماء
او نارا فيبطل عن الجوهر اعراضه فاما الجوهر من حيث هو جوهر
فانه باق لا سبيل الى عدمه هذا في الجوهر الجسماني القابل للاستحالة
والتغير فاما الجوهر الروحاني الذي لا يقبل الاستحالة ولا تغيرا
في ذاته وانما يقبل كمالاته وتمامات صورته فكيف يتوهم
فيه العدم واللاشي فاما من يخاف الموت لانه لا يعلم
الى اين تصير نفسه او لانه يظن ان بدنه اذا انحل وبطل تركيبه
فقد انحل ذاته وبطلت نفسه وجهل بقاء النفس فليس الموت
على الحقيقة وانما يجهل ما ينبغي ان يعلمه فالجهل اذا هو المخوف
اذ هو سبب الخوف وهذا الجهل هو الذي حمل الحكما على طلب العلم
والتعب به وتركوا لاجله لذات الجسم وراحات البدن واختاروا
عليه النصب والسهر وراوا ان الراحة التي يستراح بها من
الجهل هي الراحة بالحقيقة وان التعب الحقيقي هو تعب الجهل لانه
مرض مزمن للنفس والبرء خلاص لها وراحة سرمدية

ولذة

ولذة ابدية فلما تيقن الحكما ذلك واستبصروا فيه هجموا على
على حقيقته ووصلوا الى الروح والراحة به هانت عليهم
امور الدنيا كلها واستحقروا جميع ما يستعظمه الجمهور من المال والشرف
واللذات الحسية والمطالب التي تودي اليها اذا كانت قليلة
الثبات والبقاء سريعة الزوال والفناء كثيرة الهموم اذا وجدت
عظيمة الغموم اذا فقدت فاقتصروا منها على المقدار الضروري
في الحياة وتسلوا عن فضول العيش التي فيها ما ذكرت من العيوب
وما لم اذكره ولانها مع ذلك بلا نهاية وذلك ان الانسان اذا
بلغ منها الى غاية تاقت نفسه الى غاية اخرى من غير توقف
على حد ولا انتهاء الى امد وهذا هو الموت لا ما يخاف منه
والحرص عليه هو الحرص على الزايل والشغل به هو الشغل بالباطل
وذلك جزم الحكما الحكم بان الموت موتان موت ارادي وموت
طبيعي وكذلك الحياة حياتان حياة ارادية وحياة طبيعية
وعنوا بالارادي اماتة الشهوات وترك التعرض لها وعنوا
بالموت الطبيعي مفارقة النفس البدن وعنوا بالحياة الارادية

ما يسعى له الانسان لحيوة الدنيا من الماكل والمشرب والشهوات
وبالحياة الطبيعية ببقاء النفس السرمدي في الغبطة الابدية
بما يستفيد من العلوم ويبرئه من الجهل ولذلك وصى افلاطن طالب
الحكمة بان قال لمت بالارادة تحي بالطبيعة على ان من خاف
الموت الطبيعي للانسان فقد خاف ما ينبغي ان يرجوه وذلك
ان هذا الموت هو تمام حد الانسان لانه حي ناطق مايت
فالموت تمامه وكماله وبه يصير الى افقه الاعلى ومن علم ان
كل شي هو مركب من حده وحده مركب من جنسه وفصوله وان
جنس الانسان هو الحي وفصلاه هو الناطق المايت علم انه
سينحل الى جنسه وفصوله لان كل مركب لا محالة منحل الى الشي الذي
منه تركب فمن اجهل ممن يخاف تمام ذاته وممن اسوا حالا
ممن يظن ان فناءه بحيوته ونقصانه بتمامه وذلك ان الناقص
اذا خاف ان يتم فقد دل من نفسه على غاية الجهل فاذا الواجب
على العاقل ان يستوحش من النقصان ويانس بالتمام ويطلب
كل ما يتممه ويكمله ويشرفه ويعلي منزلته ويحل رباطه من الوجه

الذي

الذي يامن به الوقوع في الاسر لا من الوجه الذي يشده وثاقه
ويزيد تركيبا وتعقيدا ويثق بان الجوهر الشريف الالهي اذا
تخلص من الجوهر الكثيف الجسماني خلاص نقاء وصفو لا خلاص
مزاج كدر فقد سعد وعاد الى ملكوته وقرب من باريه
وفاز بجوار رب العالمين وخالط الارواح الطيبة من اشكاله
واشباهه ونجا من اضداده واغياره ومن ههنا نعلم ان
من فارقت نفسه بدنه وهي مشتاقة اليه مشفقة عليه خايفة
من فراقه فهي في غاية الشقاء والبعد من ذاتها وجوهرها سالكة
الى البعد جهاتها من مستقرها طالبة قرارها لا قرار لها فاما
من ظن ان للموت الما عظيما غير الم الامراض التي ربما تقدمته
وادت اليه فعلاجه ان يبين له ان ظنه كاذب لان الالم
انما يكون للحي والحي هو القابل اثر النفس فاما الجسم الذي
ليس فيه اثر النفس فانه لا يالم ولا يحس فاذا الموت الذي
هو مفارقة النفس البدن لا الم له لان البدن انما كان يالم
ويحس بالنفس وحصول اثرها فيه فاذا صار جسما لا اثر فيه

للنفس فلا حسّ له ولا الم فقد تبيّن ان الموت حالٌ للبدن
غير محسوسة عنده ولا مولمة لانه فراق ما كان به يحسّ ويألم
فاما من خاف الموت لاجل العقاب الذي توعّد به بعده فينبغي
ان يبين له انه ليس يخاف الموت بل يخاف العقاب والعقاب
انما يكون على شي باقٍ بعد البدن الداثر ومن اعترف بشي باقٍ
منه بعد البدن فهو لا محالة معترف بذنوب له وافعال سيئة
يستحق عليها العقاب وهو مع ذلك معترف بحاكم عدل يعاقب
على السيئات لا على الحسنات فهو اذاً خايف من ذنوبه لا من الموت
ومن خاف عقوبة على ذنب فالواجب عليه ان يحذر ذلك الذنب
ويجتنبه وقد بيّنا فيما تقدم ان الافعال الردية التي تسمّى ذنوبا
انما تصدر عن هيئات ردية والهيئة الردية هي للنفس وهي الرذايل
التي احصيناها وعرّفناك اضداد هذه الفضايل فاذاً الخايف
من الموت على هذه الطريقة ومن هذه الجهة هو جاهل بما ينبغي
ان يخاف منه وخايف مما لا اثر له ولا خوف منه وعلاج الجهل
يكون بالعلم فاذاً الحكمة هي التي تخلّصنا من هذه الآلام والظنون

الكاذبة

الكاذبة التي هي نتايج الجهالات والله الموفق لما فيه الخير وكذلك
نقول لمن خاف الموت لانه لا يدري على ما يقدم بعد الموت
لان هذه حال الجاهل الذي يخاف جهله فعلاجه ان يتعلّم
ليعلم ويثق وذلك ان من اثبت لنفسه حالا بعد الموت ثم
لم يعلم ما تلك الحال فقد اقرّ بالجهل وعلاج الجهل العلم ومن علم
فقد وثق ومن وثق فقد عرف سبيل السعادة فهو يسلكها
ومن سلك طريقا مستقيما الى غرض صحيح افضى اليه لا محالة
وهذه الثقة التي تكون بالعلم هي اليقين وهي حال المستبصر
في دينه المستمسك بحكمته وقد عرفناك مرتبته ومقامه
فيما سلف من القول فاما من زعم انه ليس يخاف الموت
وانما يحزن على ما يخلّف من اهل وولد ومال ونشب ويأسف
على ما يفوته من ملاذ الدنيا وشهواتها فينبغي ان يبين له
ان الحزن تعجّل الم ومكروه على ما لا يجدي الحزن عليه طايلا
وسنذكر علاجه في باب مفرد لخاص الحزن لا ما ياتي في هذا الباب
انما نذكر الم الخوف وعلاجه وقد اتينا منه على ما فيه مقنع

وكفاية الا انا نزيده بيانا ووضوحا فنقول ان الانسان من
جملة الامور الكاينة وقد تبين في الاراء الفلسفية ان كل
كاين فاسد لا محالة فمن احب الا يفسد فقد احب الا يكون
ومن احب الا يكون فقد احب فساد ذاته فكانه يحب
ان يفسد ويحب ان يكون ويحب الا يكون وهذا محال لا يخطر
ببال عاقل وايضا فانه لو لم يمت اسلافنا واباؤنا لم ينته
الوجود الينا ولو جاز ان يبقى الانسان لبقي من تقدمنا ولو بقي
الناس على ما هم عليه من التناسل ولم يموتوا لما وسعتهم الارض
وانت يتبين ذلك مما اقول لك ان رجلا واحدا ممن كان منذ
اربعماية هو موجود الان وليكن من مشاهير الناس حتى يمكن ان
يحصل اولاده موجودين معروفين كعلي بن ابي طالب عليه السلام
مثلا ثم ولد له اولاد ولاولاده اولاد وبقوا كذلك يتناسلون
ولا يموت منهم احد كم كان مقدار من يجتمع منهم في وقتنا
هذا فانك ستجدهم اكثر من عشرة الف الف رجل وذلك ان بقيتهم
الان مع ما قدر فيهم من الموت والقتل الذريع اكثر من مايتي

الف

الف انسان واحسب لكل من كان في ذلك العصر من الناس
في بسيط الارض مثل هذا الحساب فانهم اذا تضاعفوا هذا
التضاعف لم تضبطهم كثرة ولم تحصهم عددا ثم امسح بسيط
الارض فانه محدود معروف المساحة لتعلم ان الارض ح
لا تسعهم قياما متراصين فكيف قعودا او متفرقين ولا يبقى	متصرفين
موضع لعمارة يفضل عنهم ولا مكان زراعة ولا مسير لاحد
ولا حركة فضلا عن غيرها وهذا في مدة يسيرة من الزمان
فكيف اذا امتد الزمان وتضاعف الناس على هذه النسبة فهذه
حال من يتمنى الحياة الابدية ويكره الموت ويظن ان ذلك
ممكن او مطموع فيه من الجهل والغباوة فاذا الحكمة البالغة
والعدل المبسوط بالتدبير الالهي هو الصواب الذي لا معدل
عنه ولا محيص منه وهو غاية الجود الذي ليس وراءه غاية اخرى
لطالب مستزيد او راغب مستفيد والخايف منه هو الخايف
من عدل الباري وحكمته بل هو الخايف من جوده وعطاياه
فقد ظهر ظهورا حسنا ان الموت ليس بردي كما يظنه جمهور الناس

وانما الردي هو الخوف منه وان الذي يخاف منه الجاهل به
وبذاته وقد كان ظهر ايضا فيما تقدم من قولنا ان حقيقة الموت
هو مفارقة النفس البدن وهذه المفارقة ليست فسادا للنفس
وانما هو فساد المتركب فاما جوهر النفس الذي هو ذات الانسان
ولبّه وخلاصته فهو باقٍ بحاله وليس بجسم فيلزم فيه ما لزم
في الاجسام مما اوردناه قبيل بل لا يلزمه شي من اعراض الاجسام
التي يتزاحم في المكان لانه لا يحتاج الى مكان ولا يحرص على
البقاء الزماني لاستغنائه عن الزمان وانما استفاد بالحواس
والاجسام كمالاتا فاذا كمل بها ثم خلص منها صار الى عالمه
الشريف القريب الى باريه ومنشائه تعالى وتقدس وهذا
الكمال الذي بهذا العالم الحسي قد بيناه وعرفناك الطريق اليه
بما سلف في هذا الكتاب وانه السعادة القصوى للانسان
واعلمناك ضده الذي هو الشقاء الاقصى له وبينا مع ذلك
مراتب السعادة ومنازل الابرار ودرجاتهم من رضوان الله وجنته
التي هي دار القرار كما بينا لك مراتب اضدادهم من سخطه ودركاتهم

من النار

من النار التي هي الهاوية بلا قرار ربنا الله حسن المعونة على
ما يقربنا منه انه جواد كريم رؤوف رحيم **علاج الحزن**
الحزن الم نفساني يعرض لفقد محبوب او فوت مطلوب
وسببه الحرص على القنيات الجسمانية والشره الى الشهوات
البدنية والحسرة على ما نفقده او يفوته منها وانما يحزن
ويجزع على فقد محبوباته وفوت مطلوباته من يظن
ان ما يحصل له من محبوبات الدنيا يجوز ان يبقى
ويثبت عنده وان جميع ما يطلبه من مفقوداته لا بد منها
ان تحصل له وتصير في ملكه فاذا انصف نفسه وعلم ان جميع ما
في العالم العقل لم يطمع في المحال ولم يطلبه واذا لم يطمع فيه
لم يحزن لفقد ما يهواه ولا لفوت ما يتمناه في هذا العالم
فصرف سعيه الى المطلوبات الصافية واقتصر بهمته على طلب وجهد
المحبوبات الباقية واعرض عما ليس في طبعه ان يثبت ويبقى
واذا حصل له منها شي بادر الى وضعه في موضعه واخذ منها
مقدار الحاجة الى دفع الالام التي احصيناها من الجوع والعري

والضرورات التي يشبهها وترك الادخار والاستكثار والتماس
المناهاة والافتخار ولم يحدث نفسه بالمكاثرة بها والتمني
لها فاذا فارقته لم ياسف عليها ولم يبال بها فان من فعل
ذلك امن فلم يجزع وفرح فلم يحزن وسعد فلم يشق ومن
لم يقبل هذه الوصية ولم يعالج نفسه بهذا العلاج لم يزل في جزع
دايم وحزن غير منقض وذلك انه لا يعدم في كل حال فوت مطلوب
او فقد محبوب وهذا لازم لعالمنا هذا لانه عالم الكون والفساد
ومن طمع من الكاين الفاسد الا يكون ويفسد فقد طمع في المحال
ومن طمع في المحال لم يزل خايبا والخايب ابدا محزون والمحزون
شقي ومن استشعر بالعادة الجميلة ان يرضى بكل ما يجده ولا يحزن
لشي يفوته لم يزل مسرورا سعيدا فان ظن ظان ان هذا الاستشعار
لا يتم له ولا ينتفع به فلينظر الى استشعارات الناس في مطالبهم
ومعايشهم واختلافهم فيها بحسب قوة الاستشعار فانه سيرى
روية بينة ظاهرة فرح المتعيشين بمعايشهم على تفاوتها
وسرور اصحاب الحرف المختلفة بمذاهبهم على تباينها ولينصح ذلك طبقة

في طبقة

طبقة من طبقات الرعايا لا يخفى عليه فرح التاجر
بتجارته والشاطر بشطارته والمخنث بتخنيثه حتى يظن
كل واحد منهم ان المغبون المحروم من عدم تلك الحالة
حتى فقد بهجتها والمجنون من غبي عنها حتى حرم لذتها
وليس ذلك الا قوة استشعار كل طايفة لحسن مذهبه
ولزومه اياه بالعادة الطويلة واذا الزم طالب
الفضيلة مذهبه وقوى استشعاره وحسن رايه
وطالت عادته كان اولى بالسرور من هذه الطبقات
التي يخطي وتخبط في جهالاتهم وكان اخطاهم بالنعيم
المقيم لانه محقق وهم مبطلون وهو متيقن وهم
ظانون ثم هو صحيح وهم مرضى وهم سعيد وهم اشقيا
وهو ولي الله وهم اعداوه وقد قال الله عز وجل
الا ان اوليا الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون
وقال الكندي في كتاب دفع الاحزان ان مما يدلك
دلالة واضحة ان الحزن شي يجلبه الانسان ويضعه

وضعا وليس هو من الاشياء الطبيعية ان من فقد ملكا
او طلب امرا فلم يجده فلحقه حزن ثم نظر في حزنه
ذلك نظرا حكميا وعرف ان اسباب حزنه هي اسباب
غير ضرورية وان كثيرا من الناس ليس لهم ذلك الملك
وهم غير محزونين بل فرحين مغبطين علم علما لا ريب فيه
ان الحزن ليس بضروري ولا طبيعي وان من حزن
من الناس وجلب لنفسه هذا العارض فهو لا محالة سيسلو
ويعود الى حاله الطبيعي فقد شاهدنا قوما من الاولاد
والاعزة والاصدقاء ما اشتد حزنه عليهم ثم لم يلبثوا
ان يعودوا الى الحال المسرة والضحك والغبطة ويصيروا
الى حال من لم يحزن قط وكذلك قد نشاهد من يفقد
المال والضياع وجميع ما يقتنيه الانسان مما يعز
عليه ويحزن له فانه لا محالة يتسلى ويزول حزنه ويعاود
انسه واغتباطه فالعاقل اذا نظر الى احوال الناس
في الحزن واسبابه علم انه يختص من بينهم بمصيبة

غريبة

غريبة ولا يتميز عنهم بمحنة بديعة وان غايته من
مصيبته السلوة وان الحزن هو مرض عارض يجري مجرى
ساير الردآءات فلم يضع لنفسه عارضا رديا ولم يكتسب
مرضا وضعيا اعني مجتلبا غير طبيعي وينبغي ان يتذكر
ما قدمنا ذكره من حال من يحيا بتحية على ان يشمها
ويتمتع بها ثم يرد الى موضعها او تدافعها ليشمها غيره
ويتمتع بها سواه فاطمعته نفسه فيها وظن انها موهوبة
له هبة ابدية فلما اخذت منه حزن واسف وغضب
فان هذه حال من عدم عقله وطمع فيما لا مطمع فيه
وهذه هي حال الحسود لانه يحب ان يستبد من الخيرات بما
لا يشاركه فيه الناس والحسد اقبح الامراض واشنع
الشرور ولذلك قالت الحكماء من احب ان ينال اعداه
الشر فهو محب للشر ومحب الشر شرير وشر من هذا
من احب الشر لمن ليس بعدو له واسوء حالا من هذا
من احب الا ينال اصدقاءه خير ومن احب ان يحرم

صديقه الخير فقد احب له الشر ويجب من هذه الردا
الحزن على ما يتناوله الناس من الخيرات وان يحسدهم
على ما يصلون اليه منها وسوا كانت هذه الخيرات
من قنياتنا وما ملكناه او مما لم نقتنه ولم نملكه لان الجميع
مشترك للناس وهي ودايع الله عز وجل عند خلقه
وله ان يرتجع العارية متى شاء على يد من شاء ولا شنعة
علينا ولا عار اذا رددنا الودايع وانما العار والسبة
ان نحزن اذا ارتجعت منا وهو مع ذلك كفر للنعمة لان
اقل ما يجب من الشكر للمعير ان يرد عليه عاريته على طيب
نفس ونسرع الى اجابته اذا استردها لا سيما اذا
ترك المعير علينا افضل ما اعارنا وارتجع اخسه
قال واعني بالافضل الاجل الذي لا تصل اليه يد ولا يشركنا
فيه احد اعني النفس والعقل والفضايل الموهوبة لنا
هبة لا تسترد ولا ترتجع وتقول لئن كان ارتجع الاقل
الاخس لما اقتضاه العدل فقد ابقى الاكثر الافضل وانه لو كان

واجبا

واجبا ان يحزن على كل ما يفقده اوجب ان يكون ابدا
محزونين فينبغي للعاقل الا يفكر في الاشياء الضارة المولمة
وان يقل القنية ما امكن واستطاع اذا كان فقدها سببا
للاحزان فقد حكي عن سقراط انه سئل عن سبب نشاطه
وقلة حزنه فقال لاني لا اقتني ما اذا فقدته حزنت
عليه واذ قد ذكرنا اجناس الامراض العالية التي تخص
النفس واشرنا الى علاجاتها ودللنا على اشفيتها فليس يتعذر
على العاقل المحب لنفسه السعي لها فيما يخلصها من آلامها ويجنبها
من مهالكها ان يتصفح الامراض التي تحت هذه الاجناس من
انواعها واشخاصها ويداوي نفسه منها ويعالجها بمقابلتها
من العلاجات والرغبة الى الله عز وجل بعد ذلك في التوفيق
فان التوفيق مقرون بالاجتهاد وليس يتم احدهما الا بالآخر
تمت المقالة السادسة والحمد لله رب العالمين وصلى الله
على النبي محمد وآله اجمعين وحسبنا الله ونعم المعين بحرمة
اهل بيته الطاهرين اللهم اغفر لكاتبه وناظره آمين آمين يا رب العالمين

طهارة النفس شيخ البه